عبد الكريم قاسم
في ضريح الامام علي (ع)

عادات وتقاليد المجتمع الكربلائي

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2565) السنة العاشرة
الاثنين (13) آب 2012

WWW. almadasupplements.com

8

زمان الوصل
مع الخشالي ومقهاه

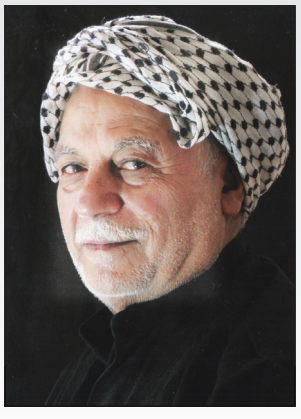

المجتمع العراقي: حياة عشناها

شيماء الصراف
باحثة وكاتبة

تحتفظ الذاكرة بصور، بمواقف نسترجعها، نستحضرها في مناسبات أو تنتصب أمامنا عفويا دون جهد منّا . لمَ هذه من بين العشرات إن لم يكن المئات ؟ لمَ اسْتقرت في الرأس؟ بما ارتبطت؟ أسئلة بعضَها يظل بدون جواب لعدم القدرة عليه.

لمن اكتب هذه المقالة ؟ له.. لأبي الذي رحل ولم يرحل قط، لنا معا نحن الاثنين: أنا وهو؟ لثلاثتنا بإضافة شاهد حي.. المجتمع العراقي بأكمله؟ إنها لثالثتنا والثالث هو المقدّم .

هذا الحشد من المواقف في ذاكرتي سببها أبي؛ الجزء الأكبر في حياته قسمان : عمل لدى الدولة في السلك القضائي، ثم تقاعد ومارس المحاماة هذا النشاط المهني الحبيب إلى قلبه. هناك نشاط ذاتي شخصي لديه : الأدب ، إنه الأديب الكاتب .

الذكريات الإنسانيّة الثريّة هذه أدين له بها، رجل قانون وأدب، حر الضمير، ذو مروءة لا يعرف في تعامله غير الإنسان، لا عرق ولا لون ولا دين ولا مذهب وهذا يفسّر كل علاقاته وتعامله مع الناس بمطلق الكلمة. أدين له بمفاهيم ومنطلقات نظرتي إلى الغير ومن ثمّ تعاملي معه.

سأتحدّث عن أمور عشتها معه وعايشتها بقربه.

المودّة، لغويّاً، أعلى مراتب الحب، حتى قيل " المودّة نسب" ، هذه الكلمة مفتاح علاقة الصرّاف بمير بصري، إنه عالم الإقتصاد، الأديب الشاعر رئيس الطائفة اليهوديّة في العراق . إنه دائم التعبير عن مودّته لأبي فهو الذي كتب قصيدة شعرية احتفاءً بمولد شمول أختي وهو الذي رثى جدّتي لأمّي بأجمل الرثاء بعد موتها ، باعتبارها آخر الأحفاد المباشرين لأبي الثناء الألوسي صاحب تفسير " روح المعاني" .

حين غادر مير بصري وعائلته العراق بعد السماح له بالسفر (عام ١٩٧٤) لم يخبر أحداً عن قراره بعدم الرجوع، ذهب إلى مكتبة المثنّى حيث يجتمع بعضاً من أدباء بغداد نهاية كل صباح ليرى أصدقائه فقد لا يراهم قط بعد هذا احتضن أبي بشدّة ، قال له : ماذا ترغب ان أجلب لك عند رجوعي؟ طال الحال، وكأنه يحتضن العراق المفارق له ويشمّ رائحته .رجع أبي يومها ظهراً سمعته يقص على أمّي باستغراب، عدويّة (اسم أمّي) شنو قصته مير بصري، هوّ فقط رايح مكان قريب وراجع بعد أيام، لم دمعت عيناه وهو يحتضنني بهذه القوّة وَحتى يرفض أن يخلّي عني.

لم يلتقيا بعدها قط ، استقرّ مير بصري في لندن وهناك عاش منصرفاً إلى التأليف ، وحين كتب عن أدباء العراق كتب أجمل الكلام في ترجمة صديقه الصراف، مات متجاوزاً التسعين من العمر. كنت اتصل به من باريس(حيث أقيم) بين الحين والحين وخصوصاً في الأعياد، ترد زوجته، أقول :خالة أني شيماء، ثم أسألها عن أحوالها وصحّتها وبعدها أقول أحجي ويّه عمّي، أسمعها: مير (مير) قوم احكي مع شيماء، يأتي، اللّهفة والسؤال عن الأحوال ، التمنيّات والأمنيات.

كان أهم مايميِّز علاقة أبي بطبيبه كرجي ربيع هو هذه الثقة التي لا يحتويها أي أطار وشكل، إنها بلا حدود على الإطلاق، مايقوله كرجي ربيع هو القانون الفصل ولا نقاش به أو بعده . المودّة هنا هي المحسوسة، كنت مع أبي مرّة في عيادة الطبيب لم يكن أبي مريضاً أو يشكو من شيئ لا أتذكّر لماذا ذهبنا ربما فقط لرغبة أبي رؤية أحد أصحابه، أتذكّر فقط محادثة تشع بالصداقة والألفة: سأله أبي عن الشاي خصائصه كان الطبيب مسروراً لوجود أبي أمامه مستنفر الحواس منتبهاً، أتذكّر أنّ كرجي ربيع قال لأبي في معرض التدليل على قوة الشاي وفاعليّته: يعني من يطبخون باجة (رأس الخروف) يحطون شويّة شاي بقطعة قماش مَلمَل ويدندلوها بالقدر حتى الباجة تنطبخ زين. . . .

السرور ذاته على وجه آخر ، وجه عزرا قحطان له محل قماش وخياطة واعتاد أبي الذهاب عنده، كنت معه ذات مرّة، تهلّل وجه عزرا قحطان عند رؤيتنا قال لمساعديه هذا حامد بك أجه، أعرب أبي عن رغبته في قاط (بدلة) ، ازداد حبور الرجل ستكون فرصة لمداعبة أبي في أنّ الأزياء تتبدّل لوناً وشكلاً والأمر لا يعنيه فهو يتخيّر من نفس ألوانه المفضّلة والتفصيل والشكل هو نفسه.

كانت ملكيّة سينما الرشيد (في شارع الرشيد) ليهود ولا أعرف إن كان المالك شخصاً واحداً أو أكثر، الذي أعرفه أن أصحاب السينما من المثقّفين الأدباء كان أبي يسر بمجالستهم وصحبتهم، فالمكتب الذي يقع ضمن البناية ككل ويفصل بينه وبين بناية السنيما حصراً حوش (باحة) ليس بالواسع،هذا المكتب يمثّل نادياً صغيراً للأدب والشعر والتاريخ واللغة ، يصحبنا أبي صغاراً ،أنا أكبر الأبناء وآخر أصغر مني ، يجلسنا في "لوج" وينزل هو لمجالسة أصحابه، وشاهدت أعظم أفلام الطفولة : الكاوبوي (العصابة كما نسمّيها) ، طرزان، فلاش كوردن....

من ذكرتهم هنا صمدوا ولم يتركوا وطنهم، قاوموا مسرحية التهريج المؤلمة التي حدثت في بداية الأربعينات و" الفرهود" لحمل اليهود على ترك العراق إلى فلسطين المحتلّة .

لا أعرف من مات في وطنه العراق أو من مات في الغربة، الذي أعرفه هو سبب هجرة مير بصري . إنه رجل هادئ صبور يفلسف الأمور ، ولكن لكل أمر حد ودرجة احتمال فقد كفّت السلطة عن معاملته كمواطن ؛ زارنا مرّة مع عائلته زوجته وابنته، كنا جالسين في صالون بيتنا جرى الحديث عن المدرسة قال مير بصري ان ابنته اكملت الثانويّة بمعدّل فوق السبعين، دار حديث آخر، ثم التفت أبي قائلاً للبنت : عمّو بأي كليّة ستدخلين؟ كانت فترة التقديم للجامعة، لم ترد إلاّ بهمهمة، قال أبوها إنه ممنوعة من ذلك، لم يفهم أبي قال ان معدّلها ممتاز، حينها شرح مير بصري الأمر، لحظتها وجم أبي ولم تصدر عنه كلمة، بينما ابتسم أبوها ابتسامة خالية من أي تعبير ورفع وجهه وعيناه ينظر إلى الأعلى . وكأنه يريد التأكيد على عدم استغرابه لما يصدر عنهم (السلطة) التفت إلى أبي، قال : إنهم يعلمون جيداً أن لا نشاط لديّ سوى النشاط العلمي، مع ذلك السائق الخاص لسيّارتهم هو من جهاز المخابرات ينقل أخباره ، قال: هكذا يحس الإنسان بالغربة في وطنه .

في حرب ١٩٦٧ الأغاني الوطنية والأصوات في الراديو تعلو بما يشبه الصراخ ، تحرير فلسطين، إخراج اليهود منها.....كنت يومها عند خالة أديبة أخت جدّتي ، كان وجهها طافح بفرح طفولي وهي تستمع ، قالت : سترجع (ذكرت أسمها ونسيته)، وسنعوّض مامضى من الأيام ، تسترسل وهي ترى مايرتسم على وجهي من أسئلة، إنها جارتي وصاحبتي، بنت اوادم، خاتون ، وكالسابق ، ستأتي العصريّات قوري الشاي حاضر بالمنقلة، وسنأكل معه الخبز والجبن والنعناع ، ونأخذ بالحديث . تعود لتأكّد : سترجع ،سترجع.

ولم ترجع قط .

×××

إن كان الحب، الفخر والإمتنان لسيد البشر النبي والرسول الكريم محمد يملأ قلب أبي بحيث لا أستطيع وصف وجهه إلاّ بأن هناك إشراقة ونور يعمه حين يردّد قول نبينا في منازلة المشركين : أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب، فإنّ للمسيح عليه السلام في قلب أبي مكانة وحب لا ينافسهم فيها إلاّ ما يحمله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) .

كان من أشدّ ما يحبّه أبي هو سماع التراتيل الكنسيّة التي تشدو بحب النبي عيسى المسيح إبن الصدّيقة مريم العذراء، لم يذكر لي ولكنه ربما كان يحضرها في الكنيسة منذ شبابه المبكر، أرادنا نحن أولاده أن نتعلّم حبها، إنها كلمات حب ، طيبة ورحمة والإنصات إليها يشيع الهدوء والسكينة في النفس، فكان يأخذنا إليها بين الحين والحين : ياالله ياالله بابا انروح للكنيسة راح تبدي التراتيل، ولا أعرف على أي مذهب كانت . في كل صيف تقريباً كنا نذهب كعائلة إلى لبنان ، صيف منها توجّهنا إلى زحلة مباشرة ، الفندق يقع قرب شلاّلات ماء، كنا صغاراً متعبين من السفر، ولكن الغد كان يوم الأحد، صحونا على صوت أبي مقترناً بهدير الشلاّلات : ياالله بابا كعدوا البسوا هدومكم انروح للكنيسة نسمع التراتيل، وذهبنا .

..وأنا أعيش في باريس منذ عقود من الزمن لم أتخلّ عن الذهاب إلى الكنيسة من وقت لآخر، ليس لسماع التراتيل ولكن لدقائق هدوء مقتطعة من الزمن أمضّيها أقرأ ماجاء في كتاب الله العزيز بشأن نبيِّه عيسى ، أقرأ كلام ابن الصدّيقة مريم : " إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلني مُباركاً أينَ ماكنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيّاً ،وبَرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً، والسلام عليَّ يوم وُلدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً" (سورة مريم . الآيات من ٢٩ إلى ٣٣) .

في العراق، بغداد وهو أمر عرفته وعايشته كان هناك من الناس من يذهب إلى الكنائس كذهابهم إلى المساجد وخصوصاً تلك التي تضم أضرحة آل البيت في النجف ،كربلاء، سامراء...

... هناك من العوام . والعوام مؤشّر لعقليّة لا لطبقة اجتماعيّة. من يجعل بينه وبين ربه، واسطة وهذا الأمر حرام ومحرّم .

حضرت حادثة تبعث على الإبتسام: كنت في صحن الإمام موسى الكاظم ، كان صيفاً،النساء من مختلف الأعمار يتحلّقن في حلقات ، التعارف قد يكون آنيّاً . الحديث ؟ إنه همومهنّ وابتساماتهنّ.. ومن حين لحين تستدير الأم من النساء لتلقي نظرة على الأبناء ، فهم غالباً ما يأتون برفقتهنّ، الأطفال يلعبون فرحين . كنت قرب إحدى هذه الحلقات ، كنّ خمس نساء ريفيّات من شريحة شعبيّة (وهذا وصف لهنّ وليس تقييماً) واحدة منهن على ما يبدو كانت محرومة من الإنجاب لسنين عديدة، ثم حملت وولدت بنتاً كما تمنّت ، الأربعة يلمنّها ويُعاتبنها : جا اشلون تسمّينه مريم وما تسمّينه فاطمة اشلون؟؟(أي كيف تسمينها مريم وليس فاطمة؟) إنها تدافع عن نفسها بقناعة وقوّة : شنهي هاي ؟ اشبيجن؟ طلبته من فاطمة ونذرتله ومانطنتيّاها، رحت للكنيسة طلبته من مريم نطنتيّاها، وسمّيته على اسمها. (أي ما بالكن ؟ طلبته من فاطمة ولم تمنحني إياه! و طلبته من مريم وفعلت!)..تركْتهنّ ومضيت ولم يزل العتب مستمرّاً .

اسرة يهودية

×××

لم يكن لأبي مكتب محاماة؛ كان يستقبل الناس الراغبين في توكيله في دعوى، في البيت . كنت أرى أعيان الصابئة من كبار السن يأتون منزلنا، كان لباسهم عربيّاً تقليديّاً، في العادة لا أعرف من في الصالة، فقط أعرف أنّ من واجبي أن أنبّه على عمل قهوة لهم، بابا إنسوي كهوة؟ لا بابا الناس صُبّة (صابئة)، ولا يشرح، فأنا لديّ علم أنهم لا يأكلون ولا يشربون في بيت ناس لا يحملون نفس ديانتهم. كان شيخ الطائفة عبد الله بن الشيخ سام يأتي أحياناً لوحده لرؤية أبي، رجل مربوع القامة نحيفها يميل إلى القِصَر، لباسه عربي زبون وعكال، طلق الوجه لطيفه، ذو لحية صغيرة .إنه والد عالمنا الجليل الدكتور عبد الجبار عبد الله عالم الفيزياء الكبير. في يوم صيف شديد الحر جاء لوحده وكالعادة لم يشرب شيئاً، كنت بالقرب منهم، وهو يتهيّأ للخروج قلت لأبي بصوت خافت ألا نطلب له تاكسي ، ردّ : لا لن يقبل، سيرجع مشياً لن يركب باص ولا تاكسي، لا تقلقي، إنه هكذا وبنيته القويّة تحتمل، سكت أنا، معنى ذلك انه سيذهب من الأعظميّة حيث نسكن إلى بيته الذي يطل على النهر في الصالحيّة مشياً على قدميه.

في يوم جاء حوالي العشرة منهم وكان من بينهم شباب بلباس أفنديّة وبدون لحى، سألت أبي عن تقديم القهوة، قال ربّما، وفعلاً الشباب أخذوا أقداح الماء والقهوة وامتنع الشيوخ .

وفي كل الأحوال من غير المستطاع تفرقتهم عن المسلمين؛ فعلاوة على اللّباس، لحى أو بدونها فإن ملامحهم عربية وأسمائهم عربيّة/إسلاميّة صرفة .

كان لأبي أجمل وأقوى العلاقات بهم، أُناس طيبون مسالمون، دمائهم معجونة بتربة وطنهم العراق منذ قرون سحيقة فهم نتاجه .الصياغة حرفة برعوا بها، والفضّة على الأخص وتزيينها بالميناء بنقش صور وآثار العراق : أسد بابل، الثور المجنّح، النخيل...في كل سوق صاغة هناك الصورة التقليديّة المعتادة: الصابئي الصائغ جالس على قطعة حصيرة أو بساط على الأرض، زبون وعكال ولحية وأدواته بيده وحوله يعمل صامتاً مطرقاً يرفع رأسه عند الحاجة، صورة عراقي منذ عهود بعيدة. ابناؤهم جيل السبعينات اختلطت بهم في الجامعة وفي العمل لاحقاً بمجالات متعددة، ومهما كانت اختصاصاتهم فقد ظلّت علاقاتهم بفن الصياغة قويّة، ففي العطلة الصيفيّة يرافقون آبائهم إلى محل الصيّاغة لمساعدته والعمل بإشرافه، وهكذا كان حال هشام طبيب الأسنان العراقي الصابئي،وهو مثال لا غير، كنا معاً في المدينة الجامعيّة في باريس كلٌ من أجل اختصاصه، فهشام لم ينس على مر السنين مهاراته البسيطة .مقارنةً بأبيه .في الصياغة والتي اكتسبها منه خلال عطل المدارس الصيفيّة .

اشتهر المحل الجديد لأبي نادية الصائغ (نسيت اسمه، وهو معروف بإسم ابنته)، إنه افندي

المظهر، لا يعمل وإنما يبيع فقط، ومحلّه منظّم بطريقة حديثة ويقع في وسط بغداد . كان يهرع لرؤية أبي حال وقوع مشكلة له، أبي لم يكن يأخذ أتعاباً في المقابل، فالأمر لا يخرج عن إطار تمرين مسلّي له . جاءه مرّة ،قال إنّ إمرأة من بين عملائه رغبت في قلادة ذهبيّة قالت ستلبسها أيّاماً ثم إنْ اقتنعت ستشتريها وذلك بسبب سعرها العالي، اتّصل بها أبو نادية بعد أيام فأنكرت أخذها لها، أنّبه أبي لعدم أخذ وصل باستلامها، قال لم يستطع فهي تشتري منه منذ سنين كثيرة وهناك ثقة. طلب أبي وصف دقيق جداً للقلادة، في المحكمة أمام القاضي يوم المرافعة واصلت المرأة انكارها، لم تأخذ قلادة اطلاقاً بل ولم تر شيئاً كهذا في محل الصائغ. في لحظة ما استدار أبي وقال لها ان الضرر الحاصل كبير فالقلادة غالية جداً بسبب كمية الذهب فالقلوب المتدلّية منها كبيرة الحجم تفصلها عن بعضها قلوب صغيرة، ثم استرسل في الوصف، كان حماساً مفتعلاً ولكن المرأة صدّقته فقاطعته محتجّة بغضب: ليست قلوب وإنما كرات متوسطة الحجم، سكت أبي ونظر إلى القاضي الذي ابتسم وانتهت القضيّة.

×××

يُقال عن أبي انه " حنفي المذهب علوي الهوى بلا غلو و لا تطرف"، وهو كان كذلك شأنه شأن الكثيرين ، إنما هي هذه الزيادة " الشافعيّة" في حبهم . موقع أبي كأديب، قدراته كخطيب، ذاكرته ومن ثمّ حفظه للتاريخ هي التي جعلته يخطب في أيام عاشوراء في الكاظميّة على الملأ في مجلس الشيخ الخالصي لا غير .

إنها سنين خير وعطاء وبركة.

كان العلماء والفقهاء سنيّهم وشيعيّهم، عربيّهم ،كرديّهم وتركمانيّهم ....على علاقة علميّة وشخصيّة طيّبة ببعضهم البعض. كان الشيخ فؤاد الألوسي يُدرّس في جامع مرجان، يحضر دروسه الشيعة والسنة على حد سواء. حين خانه قلبه مال وسقط في حجر أقرب طالبي علمه من الجالسين ، إنه حجي جواد الجوهرجي الشيعي المذهب، كان يحضر عندنا في البيت ، أُمّي تحبه ، تقول مات خالي في حضنه . في جنازته خرج محمد مهدي الخالصي وكان كفيف البصر، لتوديعه وقد أصرّ على ذلك بالرغم من حالته الصحيّة المتعبة، المودّة تجمعهم ووحدة الهدف .مات الخالصي في الشهر الأخير من عام ١٩٦٣ ،بعد شهور من وفاة الألوسي الذي توفي في العام نفسه .

صلّ عليكم لا صلاة له

الصلبة أيضاً

في إحدى أيّام الجُمع ، بداية أعوام الستّينات، كنت برفقة أبي في سوق الكاظميّة الرّئيسي المسقوف؛ دكاكين لكافة أنواع البضائع على الإطلاق للرجال والنساء ، كان هناك من الباعة من يفترش الأرض يعرض عليها بضاعته، ومن بينهم الرجال الذين يأتون من بلدان أخرى لزيارة أضرحة آل البيت، كانوا يجلبون معهم أحجار كريمة مثل العقيق ،الكهرب ، بايزهر... يبيعونها للمتاجرة لغرض الربح فتكون السّفرة مُربحة ومن ثمّ مريحة. كان جزء من برنامج يوم الجمعة في الكاظميّة إن قرّر أبي، هو الذهاب إلى السوق للتفرّج على الأحجار وربما الشراء أيضاً . كنت أتفرّج كالعادة، على كل شيئ، جلب نظري رجل جالس على الأرض أمامه قطعة قماش كأنها بساط مربّع الشكل وضع عليه بضاعته للبيع، لم تكن البضاعة تتميّز بشيئ؛ معظمها باقات صغيرة لأعشاب تمّ تنشيفها، البائع هو الذي استحوذ على انتباهي : رجل أشقر الشعر طويله يصل إلى حد كتفيه، بشرته بيضاء اللون، عيناه زرقاوان، نحيفاً طويل القامة كما يبدو من هيئته، كان هادئاً صامتاً، يلبس زي العرب من البدو دشداشة يميل لونها إلى البياض يعلوه نوع من " السترة" بدون أكمام ولا أزرار، كانت عيني قد علقت معصم يده من الداخل،

مير بصري

كان هناك وشم للصليب، قلت لأبي : بابه انظر الرجل: شكله ووشم الصليب، من هو؟ ردّ أبي : بابه هذولة الصّلبَة، بقايا الحروب الصليبيّة ، بقوا في المنطقة ولم يغادروها إلى أوربا، يعيشون في صحراء العراق، بدواً، لا يعرفون من الدين شيئاً وما تربنه من وشم الصليب تقليد توارثوه . يمارسون الطب الشعبي وما تربنه أمامه هي أعشاب أدوية سيبيعها بعضها أو كلّها ويرجع إلى موطنه الصحراء.

الإستطراد : سبع هذا الولد سبع

ونحن، أبي وأنا، أمام الصّلبي تعالت أصوات ، التفتُ شباب يمشون بسرعة تقرب إلى الركض باتّجاه مخرج السوق الذي يؤدّي إلى مسجد موسى الكاظم ، وهم ينادون الله أكبر ويؤشّرون بأيديهم طالبين من الناس التنحّي للموكب المار، الناس اصطفّوا عفويّاً على جانبي الطريق وهم يعرفون الأمر ومعتاديه . رأيت شاباً في العشرينات من عمره يلبس اللباس التقليدي من جبّة سوداء وعمامة، كان يمشي بخطى قويّة واثقة مرفوع الرأس، يرافقه رجال يمشون ورائه وبجنبه، لاحظ أبي التساؤل على وجهي، قال لي : بابه هذا مهدي الخالصي، إنه يذهب للصلاة. أردف أبي بإعجاب وفخر: سبع هذا الولد سبع لم يكن الخالصي الوحيد الذي وصفه أبي بذلك ، هناك أثنان آخران وإمرأة شابّة، إنهم يختلفون تماماً في الميول والإتّجاهات الفكريّة، ولكن فكر الشخص ومعتقده يحتل حيّزاً محدوداً تماماً في التقييم ، الثبات على المبدأ الذي هو أداة بناء للمجتمع ، احترام الآخر وعدم إلغائه، انعدام المناداة بـ" الأنا"، انعدام النفاق أمور يرجع إليها أبي في تقييم الشخص، لذا فوصفه للشخص بالسبع أو المرأة بالسبعة غاية في الندرة .

المرأة السّبْعة : كانت شابّة في العشرينات من عمرها، صابئيّة الدين، شيوعيّة الفكر، قُبض عليها وسُجنت . وهذا أيضاً في أعوام الستّينات التي أعقبت انقلاب ١٩٦٣ في بغداد. هرع أبوها لرؤية أبي، إنه يتوسل: انريد البراءة على يدّك، ابّختك، هذي بنيّة صغيرة قشمروه (خدعوها)، ذهب أبي بصفته محامي، لرؤيتها كانت مهمّته أن يتكلّم معها، فلكي يستطيع إخراجها عليها أن تكتب براءة من معتقدها والحزب الشيوعي، وهو أمر مقرّر من الدولة، البنت نحيفة شاحبة اللون تجلس أمامه. بتصميم هادئ شجاع، قالت أنها تعرف الأمر ولن تكتب براءة، تحاور معها أبي شرح لها وضع عائلتها قلقهم وخشيتهم، البنت ظلت على هدوئها لم يبدُ عليها أي ملامح أسف، أسى تراجع... يعيد أبي الشرح والكلام والجواب نفسه . تعددت مقابلات عائلتها لأبي وتعدّدت محاولاته معها والحال نفسه رفض هادئ حازم ، شهدت محادثة لأبيها مع أبي ربما كانت

مصطفى جواد

الأخيرة : انفجر أبي غاضباً لتوسّل الأب ، غضب أبي للبنت لا عليها ، غضب لعجزه عن فعل شيء لهذه الشابة التي يحمل لها تعاطفاً يتجاوز به حدود مهنته كمحامي . إنه يثمّن هذا الموقف لها : رفضها كتابة ورقة بخطّها تتبرّأ به من الفكر الذي تؤمن به مقابل إطلاق سراحها، بعدها قال أبي بفخر خفي : بابه هذي بنت سبعة.

×××

يمرض أبي ويلازم السرير، ثم يشفى ويدخل في مرحلة النقاهة وأصبح باستطاعته استقبال الناس، ولأجل ذلك وضعنا له سريراً في غرفة الضيوف .فكأنّما العراق بأديانه وأعراقه يروح ويغدو عليه زائراً متفقّداً.كان هناك من يستقبل الزوّار يُجلسهم، وهناك من يهيّأ الشاي والقهوة والمرطّبات لهم، كنت أنظر من الشبّاك الكبير للصالون والمطل على البوّابة الحديديّة التي يدخل منها الزوّار، أزياءهم تدل عليهم؛ عباءات، جبب (جمع جُبّة) وعمائم سوداء إنهم وجهاء علماء رجال الفقه من الشيعة، جبب وعمائم بيضاء أو تميل للّون الأسمر، إنهم رجال فقه وعلماء من السنّة ، أميّز شيوخ الصابئة بملابسهم العربية التقليديّة، يأتي دور رجال الدين النصارى بملابسهم الدينيّة التقليديّة ذات اللون الورديّ الغامق المائل إلى اللون القرمزي، هناك الأفندية خليط من الأدباء، المحامين، الأطبّاء.... إنهم من جميع الأديان والملل والمذاهب على الإطلاق، لا انتماء عقيدة ولا عرق ولون يعزل بعضهم عن بعض. هناك جامع لهم إنه الانتماء المخلص لوطنهم العراق، إنهم عراقيّون .

مرض آخر لأبي ألزمه السرير ، ثم تحسنت حالته بحيث أصبح بمقدوره استقبال عائديه .أثنان منهم على الأخص أتذكّرهم تماماً لمجالستي إيّاهم ولأني أراهم كلّ يوم بقربه صباحاً أو مساءً، الدكتور مصطفى جواد عالم العراق في التاريخ واللّغة والأدب، خليل الله خليلي الشاعر الأديب الأفغاني كان سفير بلاده في العراق وكان يسكن بقربنا فهو جار لنا . ورأيت من الألفة والمودّة شيئاً هائلاً من الجمال؛ كان الزائران يختاران من الحديث أجملهُ ، وينجح مسعاهم حين يرون الإهتمام مقروناً بالسرور على وجه أبي، وكان مصطفى جواد لا يغادر المنزل حين رؤية أبي نائم ، يجلس مع أمّي في صالون البيت ويتحادثان منتظراً استيقاظه. في هذه المرّة تعرّفت على الشيخ هاشم الخطيب، رأيته للمرّة الأولى سمع بمرض أبي فجاء يعوده، علاقتهم ترجع إلى عقود من الزمن في سنين العشرينات حين كان أبي مدير مدرسة في كربلاء والخطيب مدرّساً فيها، إنه رجل وضيئ الوجه في زي رجال الدين السنّة. لا حالة لقاء بعد غربة في رؤيته لأبي بل كأنه قد رآه بالأمس وإنما شوق كبير وفرح طاغ على وجوه الأثنين ،

شيخ الصابئة

الخطيب يذكّر أبي بأهم، بأجمل الأمور التي حصلت منذ حوالي نصف قرن ،عمر علاقتهم، في المدرسة. قصّ حادثة علقت في ذهني ولم أنسها قط ، كان يقطع الجمل بكلمة تتذكر؟ تتذكّر؟ يوجهها إلى أبي وكان أبي يهز رأسه بالإيجاب أخذهما الحماس وكان هناك الفرح والضحكات المتقطعة من اثنيهما .

×××

لا حارات مخصّصة لمنتسبي عرق أو دين؛ نعم قد تحمل بعض الحارات أو الأزقّة أسماء معيّنة، وهذا يحدث في بغداد العاصمة؛ فحين يقدم الكردي لأول مرّة من شمال العراق لتجارة أو عمل وغيره يبحث عن مكان تنزله عائلة أو أكثر كرديّة وهذا طبيعي للغاية إنه الشعور بالغربة للابتعاد عن الموطن ومن ثم البحث عن الإطمئنان ورد الوحشة، وهكذا كان يفعل القادمون من راوة وعانة وغيرها....وقد يرشد بعضهم بعضاً إلى مقاهي يرتادها أهل هذه المدينة أو تلك فيبدأ الشخص بارتيادها لرؤية أبناء بلدته . الحارات تأخذ في الغالب أسماء الصناعات والحرف . ليس هناك من جيتو ghetto لطائفة دينيّة أو عرقيّة .المسلمون سنّة وشيعة، النصارى بمذاهبهم المختلفة، اليهود، العرب، الكرد،التركمان ... تتجاور بيوتهم، الجيرة تخلق أجمل الروابط إنها نسب ثاني كما سبق لي القول. الصابئة يختارون الإقامة قرب الأنهار بسبب ديانتهم لا غير.

تحكي لنا أُمّي، تقول كنا نرجع من المدرسة ظهراً إلى بيوتنا ، وكانت هناك جارة يهوديّة تجلس على عتبة دارها يوم السبت حيث لا تستطيع العمل أو إيقاد نار فهي تنتظر مرور شخص ، جار تعرفه للاستعانة به، فمن حين رؤيتها للبنات تقول: أي بدالكن (كلمة ملاطفة) تدخل واحدة منكن لإيقاد النار لكي تستطيع تسخين الطعام ، البنات معتادين على طلبها هذا، تقول أمي فكنا نتسابق من تدخل أولاً الدار لمساعدتها.

في المحلّة هناك هذا الفضول الإجتماعي المعتاد والشرعي تماماً في معرفة ساكنى الدار التي أعلنت للإيجار أو البيع، من هو سؤال يُطرح بحَيادية وبنفس الحيادية يُرد عليه. وقد لا يكون هناك سؤال ولو أن هذا الأمر نادراً، فتُعرف العائلة من لهجة أفرادها خصوصاً في حالة قدومهم من مدن أخرى واستقرارهم في بغداد، كذلك من ملابسهم أو نوع حليهم وغيرها . وقد تتم معرفة الانتماء المذهبي للجار بسبب أمر ما. أتحدّث عن تجربة شخصيّة مُعاشة ، يرغب أحد أو لاد عائلتنا إقامة حفل لنجاحه في المدرسة ، أو عيد ميلاد أو أي مناسبة أخرى ونسهو إنها فترة عاشوراء ، سيكون هناك موسيقى وغناء، حينها كانت أمي تذكّرنا به بحزم لا جدال فيه: لا، عيب، جيراننا شيعة ، يسمعون غناء وموسيقى وهم حزانى يتخبّث خاطرهم، يخلص عاشوراء واعملوا الحفلة.

شموع خضر الياس . شموع زكريا

عند العراقيين أعراق وأديان و هناك طقوس، احتفالات تتم باسم الرجل الصالح العابد خضر الياس .

في تلعفر التركمانيّة يُحتفل بعيد خضر الياس ، وعلى بعد ٤ كيلومترات من المدينة هناك مزار تعلوه قبّة ينسبها الناس إليه وتُزار في آخر شهر شباط من كل سنة ،إنه انتهاء فصل الشتاء وبداية الربيع، يستمر الإحتفال ثلاثة أيام خميس، جمعة، سبت. تُعمل أنواع الحلاوات، الدبكة للشباب في الغالب... البعض من الطائفة اليزيديّة يحتفلون به في أول خميس من شهر شباط ، وقد يصوم البعض منهم الثلاثة أيام التي تسبقه الأربعاء، الثلاثاء، الأثنين ،أو يوم واحد . عيد مار بهنام عند النصارى يقابل عيد خضر الياس ويُحتفل به في وقت واحد مع عيد اليزيديّة هذا، يصوم النصارى ثلاثة أيام ويسمّون صومهم بـ" الباعوثة" . في بغداد هناك محلة خضر الياس في جانب الكرخ، وتعرّف بمسجد خضر الياس أو تكية الدراويش ، وتُسمّى بتكية الخضر، تتميّز المحلّة أيضاً بمدرسة شيّدها الشيخ محمد أمين السويدي في ١٨٢٣ .

في كل بقاع العراق تقريباً يجري الإحتفال بخضر الياس ، من الشمال حتى أقصى الجنوب، فيُحتفل به عند التقاء دجلة والفرات في شط العرب .لدى جميع من ذكرتهم أعلاه طقوس شعبية متّبعة في أيام العيد يرثها جيل عن الذي سبقه.

أذكر أمراً أسطّره لكم وكنت وقتها قد تعدّيت الطفولة : أخذتنا أمي لنرى الإحتفال بخضر الياس على شاطئ دجلة من جهة الأعظميّة، كان وقت الغروب ، احتشد الناس وأكثرهم من النساء والأطفال، على امتداد الشاطئ، وفي الشاطئ المقابل من جهة الكاظميّة كان هناك حشد مماثل . كانت الكرب قد بدأت في مسيرها، انحدارها على سطح الماء قبل مجيئنا. الكربة (مفرد كرب) هي قطعة خشبيّة من النخلة تُثبّت بها شمعة ثم توقد وتوضع على سطح الماء لتأخذ مكانها قرب عشرات إن لم يكن المئات من الكرب التي تبدأ بالإنحدار مع جريان الماء. شموع النذور لمن تتمنى أمراً أيّاً كان . وكأن أنوار الشموع سحراً يجعل العيون لا تحيد عنها في غروب انتهى وعتمة مساء بدأت وأخذت تشتد، ولكن هناك سحراً آخر جالباً للنظر ما أن نعرفه حتى نحار من ننظر ، إنه وجوه النساء الحالمة الآملة ، يطفو على بعضها شبه ابتسامة متفائلة أو خيط من حزن يخالطه أمل بالفرج والإنفراج.

لم تتوقّف هذه الإحتفالات قط ولن تتوقّف فهي تعبير عن طبيعة بشرية آمالها وأمانيها.

احتفالات خضر الياس عنوان من عناوين التلاحم الإجتماعي للعراقيين، وهو ليس بالوحيد، فهناك شمعة زكريّا، إنه النبي زكريّا أحد أنبياء بني إسرائيل، استجاب الله دعائه في أن يهب له ولداً فحملت إمرأته ووضعت يحيى إنه النبي يحيى الذي عمّد ، لاحقاً، عيسى المسيح في نهر الأردن[٧]. احتفال زكريّا يقع في شهر شعبان في أول يوم أحد فيه .وقبلها بأيام تزهو الدكاكين بمناظر جميلة من شموع ضخمة طويلة مزوّقة بالألوان ،تُهيّأ لحاجة الناس في إقامة الاحتفال، إنها الشمعة الرئيسية الأكبر حجماً ستأخذ مكانها في وسط الصينيّة أو إلى جانبها ، هذه الصينيّة التي تحفل بمواعين صغيرة مملوءة بكل مايطيب للنفس أكله من المكسّرات فستق وجوز ولوز، وطاسة بها حنّة معجونة، ولا يُغفل قط ما يسر الأطفال بالخصوص : مواعين الحامض حلو .

" يا زكريّا إنا نُبشرّك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سَميّاً" ، "يا يحيى خُذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً، وحناناً من لدُنّا وزكاة وكان تقيّاً، وبرّاً بوالديه ولم يكن جبّاراً عصيّاً، وسلام عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيّاً" (سورة مريم، الآيات ٧،١٢،١٣،١٤،١٥).

الدكتور حنا خياط

أول وزير صحة عراقي

د. ابراهيم خليل العلاف
باحث ومؤرخ

عندما تأسس الحكم الوطني في العراق منذ سنة ١٩٢١، كان للكفاءة الموصلية مكانتها ومساهمتها في البناء المؤسساتي وفي مجال التشريع وسن القوانين، وذلك عبر نخب من الشخصيات التي أدت أدوارها بكل كفاءة واقتدار ففي المجال الصحي مثلاً يبرز لنا د. حنا خياط بوصفه أول وزير للصحة في العراق وله برنامجه الصحي المهم ومن الأهمية التعريف به وبأدواره في المجال الطبي والمهني وسعيه لنشر الثقافة والوعي الصحي في العراق .

ولد حنا خياط في الموصل ١٨٨٤،وبعد تلقيه العلوم المدرسية ، تطلع نحو تحصيل العلوم في الخارج، حيث حصل على درجة البكلوريوس في العلوم والاداب من الجامعة الفرنسية في بيروت سنة ١٩٠٣م، كما حصل على درجة الدبلوم في الطب من جامعتي باريس واسطنبول سنة ١٩٠٨م وانتخب عضواً في الجمعية الطبية والجراحية في بروكسل. وحينما عاد الى الموصل انتخب اثناء الحرب العالمية الاولى نائب رئيس "جمعية الهلال الاحمر" في المدينة، وشغل منصب رئيس المستشفيات الملكية فيها خلال الفترة ١٩١٤-١٩١٩. وبين سنتي (١٩١٨-١٩٢٠م) عين طبيباً في مدينة الموصل. وانتمى الى "النادي العلمي" فيها، وشارك بنشاطات فعالة ،وبخاصة في محاضراته التي القاها على الاعضاء.

وبعد تأسيس الحكم الوطني شغل منصب وزير الصحة سنة ١٩٢٢م وبعد اول وزير للصحة في العراق، كما تولى رئاسة مديرية الصحة العامة للفترة (١٩٢٢-١٩٣١)، فضلاً عن ممارسته منذ سنة ١٩٢٦م تدريس الطب العربي في كليتي الحقوق والطب في بغداد وفي سنة ١٩٣١ م عين مديراً عاماً للخارجية ثم مفتشاً عاماً للصحة سنة ١٩٣٣م ومديراً للمستشفى الملكي وعميداً للكلية الطبية الملكية سنة ١٩٣٤م. وهو طبيب ماهر وكاتب مجيد له اثار طبية وكتابات في علم الاجتماع، وهو مؤرخ باحث ،وله معرفة واسعة في اللغات الاجنبية

ويعد حنا خياط واحداً من المثقفين المستنيرين الذين امتلكوا فكراً اصلاحياً للحياة والمجتمع،وقد كان لتخصصه في الطب وثقافته الواسعة في احوال المجتمع الدور البالغ في تطور الامور الطبية بمدينة الموصل اثناء توليه منصب رئاسة المستشفيات الملكية، ويتضح ذلك فيما اعده من خطط اصلاحية لرفع كفاءة الجهاز الطبي فيها

كذلك من خلال اوامره حينما نصب وزيراً للصحة في العراق .فضلاً عن مساهماته في حملات التوعية الصحية بما نشره في الصحف من مقالات صحفية رصينة تهدف الى النهوض بالواقع الصحي للبلد. ففي تقرير اجمالي عن الاحوال الصحية في الموصل منذ الاحتلال البريطاني لها حتى شهر سبتمبر ١٩١٩م، تحدث حنا خياط عن الاهمال في مرافق المدينة اثناء فترة السيطرة العثمانية وعزا اسباب التخلف الصحي الى اهمال السلطة في الوقت الذي كانت السلطة تعزو القصور في هذا الشان الى الاهالي ناكرين عليهم استعدادهم للترقي الصحي ،واردف خياط قائلاً :" ان الاسباب كلها عن الرجال الذين كانت بيدهم ازمة الادارة وقد رجحوا منفعتهم على مصلحة الرعية، فان التثبت الذي كان يقع من دائرة الصحة الى البلدية بشان التنظيفات كان يتخذ وسيلة لقضاء منافع شخصية. وكان يصرف المبلغ المخصص للتنظيفات وقدره (٦٠٠) روبية لكل شهر في وجوه مجهولة ".

وبغية الاطلاع ميدانياً على الاوضاع الصحية في البلد واصلاحها قام الرجل بالذهاب مع المامورين الى دائرة البلدية وساهم في عملية التعجيل بتنظيف البلدة خلال مدة قصيرة ،وقد نجح في دفع البلدية لاجراء التنظيفات بواسطة المختارين وشكلت مزابل صغيرة في كل زقاق. ومن الاجراءات المتخذة هي قيام الادارة الصحية مباشرة بشؤون التنظيفات وانشاء المزابل وسد الخرابات وتعيين نقاط في احياء البلد مع ماموريها ومراقبة الاعمال والاشراف على بعض الحرف ثم اصلاح "المسلخ" ونقل اللحوم الى البلد وانتظام الكنس يومياً ورفع الاوساخ الى خارج البلد وقد تناول حنا خياط بالتحليل دراسة الاوضاع الاجتماعية للاهالي محاولاً الوقوف على اسباب التقهقر الاقتصادي والاضمحلال الاجتماعي .اذ قام بتوضيح وسائل ترقية الامم، ثم تعرض الى تشخيص اسباب الانحلال في العراق وعزاها الى سببين اثنين :الاول (اجتماعي) بسبب ندرة المدارس المنتظمة والتي عملت على "اندثار الجنسية والعنصر واللسان فان هذا الخلل كان كجرثومة الوباء غرسها الدور السابق كيداً وعمداً فلم ينج منها سوى من كان معمماً وفقدان المحافل الادبية لتقاضي الشبيبة بها عن المجتمعات اللاهية" .اما السبب الاخر :فهو (سياسي) اذ اشار حنا خياط الى ان "العراق منذ حدوثه لم يكن له كما كان لسائر الامصار،حكومة خاصة به قائمة بذاتها " . ودعا حنا خياط الى شحذ همم الرجال الذين اليهم تعول في المعضلات ومنهم تستنجد الاراء السليمة ازاء هذا البحر السياسي المتموج ،وختم حنا خياط اراءه بالقول: " ان اهل الرقي كما يعلم في اجتماع الكلمة والسعي وراء الضرورة قبل الكمال واجتماع الكلمة قائم في (نخبة الامة) ونخبة الامة في من ضحى غايته لوطنه، واما العدل فلا يقوم الا اذا اهتدى المرء بكمال حريته صراطاً مستقيماً فعرف نفسه وعرف حق اخيه واصاغ السمع لواجبه ا لو طني واعترف بحق دولته "

وفي خطاب القاه حنا خياط بمناسبة افتتاح اعمال المستشفى الملكي في الموصل ،تناول موضوعات اجتماعية وصحية عديدة، اذ اشار الى اهمية الانسان في الوجود واكد ان البقاء من لوازم الوجود فالانسان من حيث انه موجود ترشده البداهة الى معرفة نواميس الطبيعة الضامنة لحفظه فتحفظ كيانه ومن حيث انه كائن مدني مكلف بحفظ نوعه تهديه القوة العاقلة الى الاحكام الادبية الكاملة فتحفظ نوعه، واشار ايضاً الى ان هذين الواجبين والمبدأين معاً أي الذاتي والنوعي اللذين هما اساس كل العائلات فالملل والشعوب. كما تعرض حنا خياط الى اسباب كثرة الوفيات بين الاطفال وانتشار امراض التدرن وانتشار الحشرات المتنوعة في الدور والازقة وقلة النمو في سكان البلد نتيجة سوء الادارة. وعدم الاهتمام في الاصلاحات الطبية ،وبين الرجل بان الامراض الزهرية قبل الحرب العالمية الاولى كانت في البلاد قليلة جداً

كلية الطب

مستشفى مرجان

ولكن اتسع نطاقها اثناء الحرب، اما الاحوال المرضية العارضة كالجروح المتنوعة والتسمم والقتل فيشير الى انه سنة ١٩١٥م بلغ (الإلف) شخص في حين انخفض هذا العدد كثيراً سنة ١٩١٩م حيث بلغ عدد المقتولين (٩) والجرحى (٦٠) ولم يذكر أي حالة تسمم .

وداب حنا خياط على نشر المقالات الارشادية في المواضيع الصحية التي تتناول طرق الوقاية من بعض الامراض السارية والتنبيه الى كيفية معالجتها ومكافحتها ،ففي تناوله لموضوع مرض الحمى التيفوئيدية، تطرق الى كيفية الاصابة بها وطرق علاجها ،واشار الى ان "الانتبيرين هو احسن واسطة لمقاومة الصداع اثناء الحمى التيفوئيدية ويقتضى اقتضاء ا تاما ان تعطي " الكينين" واملاحها بالمقاييس المشروطة اثناء الحمى التيفوئيدية

وفي موضوع "بثرة العراق ومصير تداويها" اوضح حنا خياط ، ان بثرة العراق هي آفة اهلية معروفة عند العامة (بالاخت) وفي اصطلاح الاطباء (بالسنمنيوز) واشار الى ان هذه الافة تظهر على سطح الجلد وعلى القسم المكشوف منه وهي ذات طبيعة التهابية بطيئة السير مع الميل لاجراء تخريبات كلية او جزئية عمقاً ومساحة في الانسجة الجلدية المستوية عليها، ويعزو حنا خياط سبب البثرة الى عدم الاعتناء في النظافة الجلدية، وقسم ادوار نموها الى (٤) اقسام واوضح اطوار كل دور. اما طريقة علاجها وتداويها فتحدث عن المالوف منها قائلاً : " ان نغسل البثرة غسلاً محكماً (بالالكتول) بحقن تحت البشرة وعلى قدر الامكان بين البثرة والجلد. وبمقدار من محلول (الايمسيتين) وحسب سعة البشرة ثم يكرر الاحتقان مرتين او ثلاثة في مدة اسبوعين "

وحينما تسلم حنا خياط وزارة الصحة ، اجتمع مع اطباء العاصمة وتباحث معهم في السبل الاصلاحية الكفيلة بتحقيق النهوض الصحي العام في القطر، واكد بان اساس العمران والدليل القاطع على المدنية الحقيقية هو المحافظة على الصحة والقضاء على الشوائب والاعراض المرضية ،وفي صدد حديثه عن منهاج الوزارة قال : " فمنهاجنا ايها السادة هو الاقدام على كل مايؤول الى تحسين الصحة العمومية واكثار النفوس واستئصال الامراض السارية والاجتماعية. فالبناء نعرفه وهو ترميم صحة العراقي ومحافظة الجنس في القوم العراقي ذلك القوم العريق في العنصر والشريف في المباديء والقريب في التطور. فعلينا ان نصلح مافسد ..ونستنفذ الوسع في اصلاح سوء تركيبه ونحاول تخفيف وطأة الامراض الاجتماعية .

كما تطرق حنا خياط الى ضرورة مشاركة الحكومة في الجهود الصحية المبذولة عن طريق ،تأسيس المستشفيات والمستوصفات والمخافر الصحية في سائر انحاء البلاد ،والحث الى استمالة الاهالي للتطبيق عن طريق المحاضرات والصحف وانشاء مجلة صحية .وختم كلامه بالمطالبة بتاسيس جمعية للاطباء للرفق بالمعلولين والفقراء .

وقد ذكره هاري سندرسن عدة مرات في مذكراته ووصفه بقوله

"كان الدكتور حنا خياط المدير العام للصحة، وهو مسيحي من اشهر الاطباء العراقيين في ذلك الوقت، فلقد امضى في الخدمة لدى الحكومة التركية عشرين سنة قبل ذلك الوقت، وكانت معلوماته عن المشاكل الصحية التي تواجه الحكومة فريدة في بابها، وحين احيل على التقاعد بعد عدة سنوات ،عين عضوا في مجلس الاعيان " .

لقد اجتمع حنا خياط مع الملك فيصل الاول في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩٢٢وتباحثا في الامور الصحية والاجتماعية ،وكان خياط قد اعد مشروعاً اصلاحياً لمدة ١٠ سنوات، قدمه الى الملك فيصل وشرع بتنفيذه منذ اول تشرين الثاني من العام نفسه حتى عام ١٩٣٢. وقد ارتكز هذا المشروع على الاسس التالية.

١- ربط مختلف المصالح والدوائر الصحية والطبية بتشريع طبي خاص وموحد .

٢- تأسيس تشكيلات صحية عصرية ثابتة تتماشى مع الادارة العامة ومقتضيات العصر.

٣- تزويد دوائر الصحة بملاك ثابت من الاطباء الاختصاصيين والعاملين الماهرين في الصحة قدر الامكان.

٤- تخصيص منشات صحية بابنية ملائمة كالمستشفيات والمستوصفات والمعاهد لتحل محل الابنية القديمة التي لم تكن تتلاءم ومقتضيات العصر الراهن .

٥- تاسيس كلية طبية ملكية عراقية مع ملحقاتها كالمدارس الصحية والمعاهد والصيدلية والقبالة ودور التمريض ، لتخرج الكوادر الصحية المتخصصة ، لتحل محل الكوادر الاجنبية .

٦- العمل على ايفاد الكوادر الوطنية الى الخارج وفق تدابير خاصة للتخصص في مختلف حقول الطب بارسالهم الى المعاهد الاجنبية مع استقدام الكوادر الاجنبية المتخصصة للاستفادة من كفاءتهم .

٧- اتخاذ التدابير اللازمة للوقاية من الامراض المعدية والمزمنة عن طريق انشاء " مستشفيات " في بغداد والموصل والبصرة .

٨- تامين الاشراف الصحي والاسعاف الفوري في المراكز الحيوية كدوائر السكك ودوائر المعارف وغيرها .

٩- اتخاذ التدابير اللازمة لرفع الوعي الصحي في الريف والعمل على نشر المستوصفات والمراكز الصحية في القرى والارياف .

العمل على زيادة الوعي الاجتماعي والصحي فيما يخص قضايا السكن الصحي وتصفية مياه الشرب وتعميم طرق النظافة، وكيفية نقل الجنائز والاهتمام برعاية الامومة والطفولة، والعمل على مكافحة البغاء والتنبيه من مساوىء الامراض المعدية .

من معهد للفنون الى اكاديمية للفنون الجميلة

خالد القصاب
فنان وطبيب راحل

كان تدريس الفن التشكيلي قد بدأ عام ١٩٣٩م في المعهد الموسيقي الذي تأسس في بغداد ١٩٣٥م، وسمي بعد ذلك بمعهد الفنون الجميلة، ولم أكن يوماً طالباً فيه بل زائراً مواكباً له وعاشقاً لجوه الحر ولأساتذته وطلبته. كان الدوام فيه مسائياً في البداية أتاح المجال للكثيرين من الهواة من طلبة الكليات والموظفين الراغبين بدراسة الفن، ثم أضيف إليه لاحقا قسماً صباحياً لتهيئة مدرسي فنون للمدارس العامة، وكان اختيار أساتذة المعهد يتم على أساس ماليديهم من قدرات فنية فقط، ولا يشترط في اختيارهم أن يكونوا من حملة شهادات عليا. كان فائق حسن قد ترك الدراسة في الصف السادس الابتدائي، وجواد سليم في الثانوية، وكلاهما عملاقان في فنهما وثقافتهما، أجادوا في تدريسهم لا في المحاضرات الأكاديمية، بل بعرض مالديهم من براعة للطلبة كنموذج يحتذى به.

وفي عام ١٩٦١م أنشأت كلية سميت أكاديمية الفنون الجميلة، تابعة لجامعة بغداد، تخضع لقوانينها وأنظمتها. فكان الطلاب يُختارون من خريجي الدراسة الثانوية، أما أعضاء الهيئة التدريسية كان فكان شرطاً أن يكونوا من حملة شهادة الماجستير والدكتوراه. وترقيتهم من مرتبة إلى مرتبة يعتمد على ما يقدمونه من بحوث، شأنهم شأن ما يتبع في الكليات الأخرى في الجامعة.

أبدى الدكتور خالد الجادر، عميد معهد الفنون الجميلة آنذاك، نشاطاً كبيراً في تأسيس الأكاديمية ورفدها بأحسن الأساتذة.

تخرجت الدورة الأولى من الأكاديمية في حزيران عام ١٩٦٥م، وكان من بينهم: إبراهيم العبدلي وليلى العطار وسالم الدباغ وخضر جرجيس من فرع الرسم، وودود حمودي وخالد عزت من فرع النحت، وأبقى الدكتور خالد الجادر على حرية اختيار الطلبة من خريجي الثانوية دون النظر إلى نتائج معدلاتهم في البكلوريا، شرط أن يجتازوا اختباراً صعباً في مجال الفنون التشكيلية.لكن الأمور تغيرت بعد ثورة ٨ شباط ١٩٦٣م، وأخذت منحى سياسياً فاعتبر عميد أكاديمية الفنون الجميلة الجديد حافظ الدروبي، أن الكلية وطلابها يساريون، فحاول الإقلال من شانها وسماها (أكاديمية الفنون العليا الملغاة)، ووقف إلى جانب الدروبي في التقليل من شان الأكاديمية الفنان عطا صبري، الذي نسب بحكم موقعه الإداري جميع خريجي الأكاديمية للتدريس خارج بغداد.

ومنح حافظ الدروبي الأكاديمية صفة كلية، كباقي كليات الجامعة، ويكون اختيار المتقدمين لها خاضعاً لمعدل درجاتهم في امتحان البكلوريا، بغض النظر عن طاقاتهم وعن مواهبهم الفنية. كما اختير أعضاء الهيئة التدريسية والأساتذة من بين حملة درجات الماجستير والدكتوراه في تاريخ الفن، فكيف يستطيع تدريس الألوان لطلبة الأكاديمية وهو بعيد عنها. لم يكن هناك تعليق اشد سخرية من ذلك الذي قاله الفنان البولوني (أرتوموفسكي)، الذي كان في السابق أستاذاً في معهد الفنون الجميلة، عندما زار بغداد: (رجعت لأرى الأكاديمية تعج بالدكاترة وكأنها مستشفى)، واستهزأ أيضاً من امتلاك بعض الأساتذة سيارات مرسيدس حصلوا عليها بموجب قانون الكفاءات الذي سمح لحملة الشهادات العليا بشراء سيارات بسعر مقطوع قدره ٢٠٠٠ دينار في مطلع السبعينات.

وسمعت النحات محمد غني يقول: (يريدون مني تقديم بحوث للترقية إلى مرتبة الأستاذية، أنا نحات اعرف كيف اضرب فأسي بالصخر، فما البحوث التي يريدونها، وكيف لي أن أفارق فأسي).

استدعتني عمادة الأكاديمية عدة مرات لرئاسة لجان المناقشة لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه في الفن، وذلك لأن لجان المناقشة تتطلب أن يكون احد أعضائها برتبة أستاذ، وأنا احمل أيضاً هذا اللقب في كلية الطب فضلا عن كوني رساماً. لقد ضقت ذرعاً بهذه اللجان واعتذرت عن المشاركة فيها.

كانت البحوث المقدمة سطحية جداً والطلاب لا ملك لهم في أي لغة أجنبية تساعدهم على التوسع في المراجع، ويعتمدون على أدبيات محلية وهي محدودة جدا، كالجرائد المحلية ومنشورات النقاد القليلة، وزاد من موقفي السلبي تجاه هذه اللجان، شعوري بأن من سيحمل هذه الدرجات الأكاديمية سوف تفتح أمامه أبواب التدريس في الأكاديمية دون النظر إلى مهاراته الفنية.

حضرت يوما دعوة للسيدة سعاد خليل إسماعيل وزيرة التعليم العالي (آنذاك) وزوجها داوود سلمان علي رئيس الدائر العلمية في الوزارة وعميد كلية الطب سابقاً، في دارهما المطلة على دجلة في (الصليخ)، احتفاء بزيارة (براين ونداير – Sir Brian Windeier) نائب ملكة بريطانيا في جامعة لندن (Vice Chancellor London University) وكان ضمن المدعوين حافظ الدروبي عميد أكاديمية الفنون الجميلة، وكنت اعرف عن الدكتور (ونداير) انه طبيب مشهور في جراحة السرطان، فانتهزت فرصة وجوده لأساله أمام الدروبي: (هل تخضع كليات الفن ومدارسه للأنظمة والضوابط التي تخضع لها باقي الكليات في جامعة لندن؟). فكان جوابه: (لا طبعاً، لان من الضروري أن يكون تدريس الفن حرا وغير محدد بالضوابط الأكاديمية).

من مذكرات الدكتور خالد القصاب

بغداديات... محلة باب الشيخ

باب الشيخ : محلة من محلات بغداد الكبيرة . تقع في الجنوب الشرقي من بغداد وفي القسم الشرقي من نهر دجله . ويوجد في محلة باب الشيخ العقد والمواقع التالية :
عقد الحروب
عقد الاغوان (الافغان(
عقد الشيخ الالفي
عقد القصاب خانه
قهوة سلمان قهوة المزنبله (المزمّله)
عقد العسلان
القهوة ام النخله
عقد الشيخ رفيع
عقد المطبخ
عقد المندلاوي
عقد فضوة عرب
عقد الخناق
عقد تكية القنديلجي
عقد تكية البكري
عقد الاكراد .
×وكانت هذه المحلة تدعى في العهودالسابقة مع رأس الساقية وقسم من المربعة (باب الازج) وكان في شرقي محلة باب الشيخ الحالية باب الطلسم الذي كان يعرف بباب الحلبه سابقاً ...وباب الحلبة احد ابواب السور الذي بوشر بأنشائه في عهد الخليفة المستظهر ١١١٨.١٠٩٤ وسمي كذلك لقربه من ميدان السباق الذي كان في الموضع قبل انشاء السور ، وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله اقساماً من السور ثم جدد باب الحلبة في ٢٢١ للهجرة .
وانشأ برجاً فوق الباب وعرف في العهد الاخير بباب الطلسم . ودخل منه السلطان مراد الرابع العثماني عند فتح بغداد سنة ١٠٤٨.١٦٣٨ لذا اطلق عليه اسم برج الفتح وبقي قائماً الى ستة ١٩١٧ فنسفه الاتراك عند خروجهم من بغداد .

* لماذا سميت باب الشيخ ؟

اما لماذا سميت اخيراً بباب الشيخ ، فلأنه كان بالقرب من باب الحلبة في الزاوية الغربية من السور برج كبير ورد ذكره مراراً في اثناء الحصار المغولي بأسم برج العجمي نسبة الى صوفي كان يختلي اليه ويأوى اليه .
وهو الشيخ الزاهد المشهور عبد القادر اليلاني وصار يعرف في العهد الاخير بأسم تابية الزاوية وكانت تقع داخل هذه الزاوية القطيعة المسماة قطيعة العجم ، وصارت تعرف في العهد الاخير بأسم محلة القطيعة . وهي احدى المحلات التي انشأت على عهد المقتدي بالله ٤٨٦.٤٦٧ / ١٠٩٤.١٠٧٥ م ..
× من اين إكتسبت المحلة أهميتها ؟
. اكتسبت محلةباب الشيخ اهميتها من امرين:
اولهما وجود جامع الشيخ عبد القادر اليلاني الذي اصبح مزار اقوام عديدة من العراق وغيره من البلدان وبخاصة من شبه القارة الهندية ، يتقاطرون اليه دون انقطاع فيزورونه طلباً للبركة ، وبعضهم يسكن الى جواره .
وثانيهما اتخاذها مقراً لنقابة الاشراف ،ان نقابة الاشراف هم من ذرية الشيخ اليلاني ، كانوا يجمعون بيدهم زعامة الطريقة القادريةالمنتشرة في العراق والعالم الاسلامي .
. وتوجد بالقرب من الحضرة الكيلانية وحولها عدد من التكايا من بينها تكية السيد علي البندنيجي الواقعة في فضوةعرب كذلك التكية القادرية .

*الحضرة الكيلانية :

يعد مشهد الشيخ عبد القادر اليلاني من المواقع المهمة التي كانت داخل سور بغداد الشرقية ، لأنه من الاماكن القديمة القليلة التي لا تزال في مواضعها الاصلية الى الآن.
ووقد توفي الشيخ عبد القادر اليلاني في بغدادسنة ١١٦٥ م .ودفن في موضع قبره الحالي . وقد خط داخل مرقده الشريف ابيات من شعره :
سقاني الحب كاسات الوصال فقلت لخمرتي نحوي تعالي
سعت ومشت لنحوي في كؤوس فهمت بسكرتي بين الموالي
وقلت لسائر الاقطاب لموا بحاني وادخلوا انتم رجالي
وقد انشئ عند المرقد مسجد جامع واسع وعلى مصلاه قبة فخمة متقنة الهندسة مبنية بالحجر الكاشاني الملون بالاصباغ المختلفة مع النقش الجميل تحيط به المآذن وحول المصلى رواق واسع عقد على اساطين من الرخام الابيض ولا تزال التعميرات قائمة في مرقد هذا الشيخ الجليل واطرافه .
وهذا المرقد كان في الاصل مدرسة شيدها ابو سعيد المبارك بن علي المخرمي الفقيه المتوفي سنة ٥١٣ للهجرة ثم جددها ووسعها من بعده تلميذه الشيخ عبد القادر اليلاني الذي اقام فيها حلقات الدرس وظل عاكفاً بها حتى وفاته سنة ٥٦١ للهجرة.١١٦٥ للميلاد ودفن فيها ،
ثم شيدت على قبره قبة وفق الطراز السلجوقي ، ولكن السلطان العثماني سليمان القانوني هدمها سنة ٩٤١ للهجرة و بنى على القبر قبةً شاهقةً واسعة وفريدةمن حيث التصميم ، وألحقَ بالبناء مرافق عديدة وبالقرب من الرواق تقام منارة ضخمة غير مرتفعة .

*مدرسة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني : (المسماة بالمدرسة القادرية):

هذه المدرسة قديمة العهد ، شيدها العالم الفاضل ابو سعيد المخرمي وفوضها الى تلميذه العالم الشيخ عبد القادر اليلاني وكان يدرس فيها الشيخ عبد القادر اليلاني العلوم العقلية والنقلية ، وان اولاده منهم الشيخ عبد الرزاق والشيخ عبد الجبار والشيخ عبد العزيز..
وقد شيدوا بأتصال المدرسة جامعاً كبيراً وكان هذا المسجد يلقب بذي القباب السبع المذهبة .وقد تصدر للتدريس في هذه المدرسة اولاد الشيخ عبد القادر ومن بعدهم علماء منهم العلامة الشيخ عبد الله السويدي وغيره

*مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني :

من المزارات الشهيرة في بغداد وتقع في الحضرة الكيلانية داخل السور المجاور لشارع غازي اي شارع الكفاح .

رشيد عالي اليلاني

وتضم هذه المقبرة رفاة عدد كبيرمن الشخصيات السياسية والدينية والاجتماعيةالمعروفة ... مثل : قبر عبد المحسن السعدون الذي شكل الحكومة العراقية الثالثة والسادسة والثامنة والعاشرة بين سنوات ١٩٢٢ و١٩٢٩ .....
كذلك قبر رشيد عالي اليلاني الذي شكل عدة وزارات عراقية واشترك في وزارات عراقية عديدة ، وتضم المقبرة ايضاً قبر الشيخ عبد الكريم المدرس ، وقبر الشخصية الوطنية العراقية كامل الجادرجي وقبور شخصيات من بيت الطالباني والنقشبندي والاغا والنقيب وغيرهم .

* مسجد الرواس :

يقع بالقرب من شارع الكيلاني .شيده السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٣١٣ للهجرة .
وكانت مدرسةعامرة، وفي هذا المسجد قبر الشيخ حمد الرواس الذي يسمى المسجد باسمه وكانت وفاته سنة ١٢٩٢ للهجرة

* كتاتيب محلة باب الشيخ :

وكانت في محلة باب الشيخ قبل انتشار المدارس الحديثة فيها عدد من الكتايب ... بعضها للذكور واخرى للاناث ، ومن اشهر الملالي للذكور في محلة باب الشيخ آنذاك :
. الملا صالح بن حيدر
. الملا محمد بن الحاج فليح
. الملا قاسم المغربي
. الملا عبد الغني بن الملا حيدر
. الملا عباس بهي
. الملا احمد المغربي
. الملا اسعد
×اما كتاتيب البنات فمن اشهر الملايات فيها:
. الملا اسماء بنت الحاج حسن الهندي
. الملا مرزوكه
. الملا حياة بنت الامام
× ثم تأسست بعض المدارس مثل : مدرسة عاتكه خاتون او المدرسة الخاتونية التي كانت تقع ما يلي القبلة للحضرة اليلانية .

إدارة المدرسية الفيلية / الستينيات من القرن الماضي

×اما اشهر المدارس الحديثة فيها فكانت مدرسة الفيلية ...اسسها جماعة خيرة من جمعية الكرد الفيليين سنة ١٩٤٦ ؛ وقد افتتحت في بادئ الامر في منطقة علاوي الصدرية ثم انتقلت الى عد النقيب المقابل للحضرة اليلانية المقدسة .

*من مشاهير محلة باب الشيخ :

. الحاج شكر : كان من مجبري العظام .سكن عكد الاكراد ببغداد
توفي في حدود سنة ١٩٣٦
. اسطى عباس : كان حلاقاً في باب الشيخ ..مشهور بالختان والجراحة والفصد وقلع الاسنان والحجامة .وكان مساعداللجراح الدكتور ذهني بك في مستشفى نامق باشا ببغداد في اواخر ١٨٩٣ واشتهر كجراح اهلي سنة ١٩٠٨
. المرحوم الحاج احمد المجبرجي وقد برز في مجال الطب الشعبي ، ويعد من اكبر من عمل في مجال الكسور ، حيث قام بمعالجة اشد حالات الكسور صعوبة ، وهو من الكرد الفيليين .
. نجم الشيخلي :كان مغنياً جهوري الصوت ..وفي اول امره اشتغل مع زمرة الشغالة في حفلات المنقبة النبوية الشريفة ، ثم انتقل بعد احتلال الانكليز لبغداد الى مقهى عزاوي بالميدان .
. كما ان الفنان الكبير راسم الجميلي ، هو الآخرمن شخصيات محلة باب الشيخ وهو حفيد الملا عليوي المعروف في عقد الاكراد .

* محال بيع الحلويات :

اما اشهراصحاب محال بيع الحلويات في محلة باب الشيخ فهم :
. الحاج جواد الشكرجي / . الحاج كنش الشكرجي
لقد اعتاد الناس قبل موعد مدفع الافطار في شهر رمضان المبارك على شراء افضل انواع الحلويات ...وكان الكثير منهم يقصدون حلويات الحاج جواد الشكرجي اوحلويات الحاج كنش .
حيث يتوافد الناس عليهما من معظم محلات بغداد القريبة لما اشتهرا به من تقديم افضل انواع الحلويات .

* الحمامات البغدادية :

. ومن الحمامات البغدادية المشهورة جداً في محلة باب الشيخ :
. حمام المهدي .....الذي له تاريخ عيق .
. حمام العقيل... الحمام الخاص برياضي المحلة .
× نغادر المحلة بالحديث عن رياضييها القدامى :
. اشتهرت محلة باب الشيخ برياضييها .....
من امثال : المصارع المعروف مجيد كسل ولاعبي السلة نور الله رضا ونعمان مراد وداوي والملاكم علي جاك والملاكم اسماعيل راضي وغيرهم من ابطال نادي الفيلية الرياضي في خمسينيات القرن الماضي.

سالم حسين:

يا ساكن بديرتنا... شلون وياك

سعد هادي

مع سالم حسين يكفي سؤال واحد ليتدفق في الحديث، وتتشابك بعدها الأحداث، وتتعدد الوجوه والتواريخ. يعترف بأنّ كلّ شيء ضعف فيه إلا ذاكرته. في منتصف الثمانين، ما زالت ذاكرته وسيلته للانتصار على الوحدة والشيخوخة. كان في انتظارنا على شرفة منزله في إحدى ضواحي دمشق حيث يقيم منذ ٢٠٠٣ مع ابنته سوسن. بعد دقائق من اللقاء، بدأ تيّار الذكريات يتدفّق لأكثر من أربع ساعات. كان يتوقف أحياناً طالباً عدم تسجيل ما يقول، لأنه يمسّ أشخاصاً على قيد الحياة أو وقائع سياسية حرجة.

إنّه متأكّد من سنة الولادة: ٤ شباط (فبراير) ١٩٢٣. لكنّ لا بدّ من أن نوضح أنّه هو من اختار بنفسه اليوم والشهر! ذلك أن الدوائر الحكومية بقيت طويلاً، ولأسباب مجهولة، تثبّت يوم ١/٧ تأريخاً لميلاد كل العراقيّين. سأل أمّه مرة عمّا تتذكره عن يوم ميلاده، فقالت إنّه كان في أبرد شهور السنة فاستنتج أنّه شباط/ فبراير. أما يوم الولادة فاختاره ليتطابق مع تاريخ زواجه!

في سنّ الخامسة، رأى أخاه الأكبر يحتضن كيساً منفوخاً وهو يهبط من القطار العائد من بغداد، وكان ضمن الحقائب صندوق خشبي غريب الشكل. بعد أيام رأى أخاه يعزف على شيء غريب أخرجه من الكيس، كان ذلك أوّل عود يراه. أمّا الصندوق الخشبي فكان «فونوغرافاً» استمع عبره إلى أم كلثوم وهي تغني: «مالي فتنت بلحظك الفتاكا». توالت بعدها أصوات عبد الوهاب وسيد درويش وسلامة حجازي، وسرعان ما امتلأ البيت بـ٦٠٠ أسطوانة حفظها عن ظهر قلب. «كان لدينا اشتراك في إحدى الشركات تصلنا أسطواناتها من بغداد أسبوعياً: تانغو ورومبا وفالس وكونشرتات... وكانت مجالس الشعر تُعقد في البيت». عندما بلغ الحادية عشرة، ألّف أول لحن له، فأصبح نشيداً لمدرسته. وفي مدرسة «الرجاء» الأميركية في البصرة، ألّف ولحّن نشيداً بالإنكليزية، فوعده مدير المدرسة بإرساله إلى أميركا للدراسة. لكنّه بدلاً من ذلك، انتقل مع عائلته إلى بغداد حيث قبل في مدرسة أميركية أخرى، سرعان ما طردته لأنّه قاد التلاميذ إلى التظاهر. قيل له: هذه مدرسة لأبناء الذوات... اذهب وتظاهر في مدرسة أخرى.

انتهت علاقته بالمدرسة منذ ذلك الحين، وظل يؤدي الامتحانات النهائية خارجياً حتى حصل على الشهادة المتوسطة. استمرت عائلته في إقامة مجلسها الأسبوعي. وكان من روّاده الجواهري وصادق الملائكة (والد نازك الملائكة) الذي يتذكر أنّه اشتكى مرةً من الهذيان الذي تكتبه ابنته. لذا، هو يُعدّ نازك رائدة الشعر الحر بدلاً من السيّاب الذي لا يتذكر أنّه التقاه، بل لا يتذكر أيّ شيء من شعره.

في تلك السنوات، ظلّ سالم حسين يتأرجح بين الموسيقى والشعر، وظلت تلك علامة مميزة طوال حياته. حتى إنّ الجواهري سأله في السبعينيات: «لماذا تركت الشعر؟ كان بإمكانك أن تكون شاعراً كبيراً». أما أحمد رامي فقال له مرةً حين ارتجل بضعة أبيات أمامه: «يا سلام إيه ده، هو انتو العراقيين كلكم زي الكاظمي؟». وكان الكاظمي (١٨٧١ ــ ١٩٣٥) الذي عاش ومات في مصر اشتهر بالارتجال.

في بداية الأربعينيات، وجد سالم حسين عملاً في أمانة العاصمة، فعُيّن مفتشاً على الرسوم والطوابع في الملاهي. بينما عُيّن ناظم الغزالي مفتشاً على المخابز. وكان كلاهما قد قُبل في معهد الفنون الجميلة: سالم في قسم الموسيقى، فرع دراسة القانون، وناظم في... قسم المسرح. ولم يتعرف أحدهما إلى الآخر الاّ في أحد ملاهي بغداد، حيث كانت المطربة المصرية شهرزاد تغنّي. استمرت علاقة سالم حسين بالغزالي حتى الساعات الأخيرة التي سبقت وفاته. ذهبا معاً في وفد فني إلى فلسطين للترفيه عن الجنود العراقيين خلال حرب ١٩٤٨، وصار عازفاً للقانون في فرقة الغزالي حين احترف هذا الأخير الغناء في الخمسينيات، وسافرا معاً عام ١٩٦٣ إلى الكويت حيث شارك ناظم في إحياء الحفلات... ومنها إلى بيروت حيث اشترك في فيلم «وداعاً أيها الحب» مع نجاح سلام، وأدى فيه أغنيته الشهيرة «يا أم العيون السود». وقد رافقه سالم حسين في طريق العودة براً إلى بغداد في ٢٢ تشرين الأوّل/ أكتوبر.

«كان ناظم يقود سيارته المرسيدس، خرجنا من بيروت فجراً ووصلنا إلى بغداد بعد منتصف الليل.

اتصلت به في اليوم التالي، فردّ شخص آخر على الهاتف، ليقول لي إنّه مات. ظننتها مزحة، لكن إذاعة بغداد أذاعت النبأ. أشيع بعد ذلك أنّه مات مسموماً، وبالطبع اتّجهت أصابع الاتهام إليّ لأنّي كنت آخر من رآه. لكنّ تشريح الجثة أثبت أنه مات نتيجة تخثر الدم في صمام القلب».

عاش سالم حسين في بيروت بين ١٩٥٩ و١٩٦٢، وكان يعمل مع «شركة الفنون المتحدة» التي تضمّ حسن المليجي وعبد السلام النابلسي ومحمود نصير. كان يكتب اسكتشات بالعربية الفصحى ويلحّنها، فيعيد نصير صياغتها بالعامية المصرية لتغنيها زوجته نرجس شوقي، ثم تذاع على B.B.C. كانت السهرة في شقته في شارع الحمرا تبدأ بعد الساعة الثالثة صباحاً، وكان روادها من كبار الفنانين. هناك تعرّف إلى فريد الأطرش فأخذه معه إلى القاهرة ليبقى هناك ثمانية شهور، وظل يحضر كل يوم اثنين مجلس القصبجي في المعهد العالي للموسيقى.

لحّن آنذاك لسعاد محمد أغنية «يا ساكن بديرتنا شلون وياك» كما لحّن لإسماعيل شبانة شقيق عبد الحليم حافظ أغنية «الناصرية» التي اشتهرت في مصر لأنّ بعضهم اعتقد أنّها تتغزل بالتيار السياسي لعبد الناصر، بينما كان هو يتغزل بنساء مدينته في جنوب العراق. لكنه ظل دائماً يعتقد أنّ أفضل ما فعله هو تلحينه القصائد: لحنه لقصيدة الجواهري الشهيرة «يا دجلة الخير» الذي أنجزه عام ١٩٩٨ حاز الجائزة الأولى في «مهرجان الأغنية العربية» في دمشق. كما أنجز أخيراً لحناً لقصيدة مصطفى جمال الدين التي يعشقها: «بغداد ما اشتبكت عليك الأعصر إلا ذوت ووريق عودك أخضر». وهو يعدّ ذلك رسالة وفاء للمدينة التي فارقها مكرهاً.

كعازف قانون، يجمع بين خصائص أربع مدارس: المدرسة التركية، مدرسة التكنيك ورائدها عبد الفتاح منسي، مدرسة التقاسيم المصرية وشيخها محمد عبده صالح، ثم مدرسة المقام العراقي. وقد شبّه نوري السعيد عزفه بجملة بليغة رغم أنّه لم يشتهر ببلاغته. إذ قال له: «يخيّل إلي حين أسمعك أنني أسمع رذاذ المطر على أوراق الشجر». كان «الباشا» من العارفين بالمقام العراقي، وكان أكثر مؤديه يخشون من الغناء أمامه. لكنّه هجر آلة القانون ذات يوم، لأنه رآها مُهانة وملقاةً على الأرض في حفلة أقامها مسؤول في النظام السابق، كان يتعمّد إهانة الموسيقيين. كتب قصيدة يعلن فيها اعتزاله إلى الأبد، وحين قرأها لمظفر النوّاب، الذي زاره في بيته، تفهّم سبب اعتزاله.

الآن، لم يعد يستمع إلا للكبار. «كل ما سوى ذلك الآن هرطقة موسيقية». سالم حسين لم يبق لديه الآن سوى القراءة والكتابة. يقرأ على شرفته صباحاً، ثم يعود مساءً ليكتب مستخدماً المسطرة في ضبط السطور التي لم يعد يبصرها جيداً على الورق. يقول: «حين أراجع ما كتبت، لا أجد سوى خطوط متداخلة غير مفهومة. هكذا هي حياتنا أيضاً مزيج من أحداث ووقائع يختلط بعضها ببعض وتتابع بلا انتظام أو تفسير».

مع القيثارة السومرية

سالم حسين

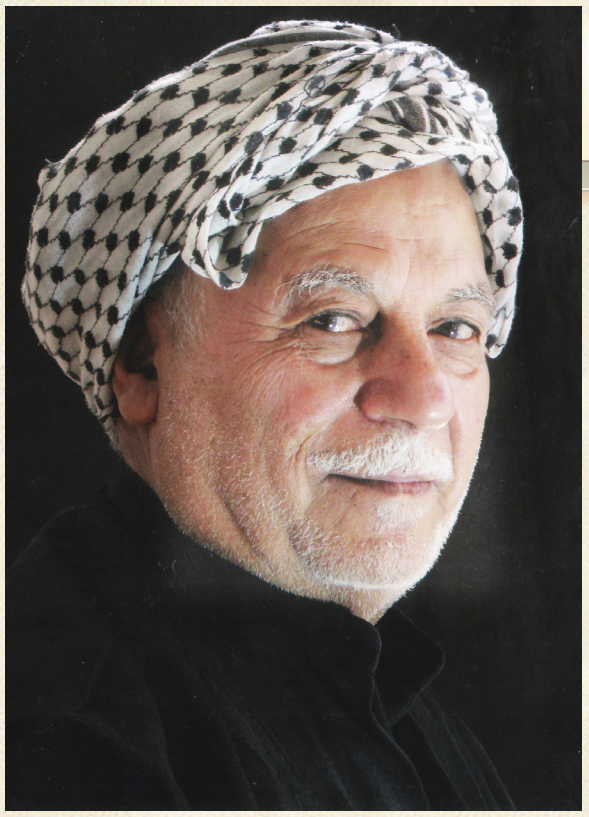

زمان الوصل مع الخشالي ومقهاه

لم يكن الحاج محمد الخشالي ، صاحب مقهى الشابندر التراثي في بغداد ، قهواتيا بغداديا فحسب ، بل جمع في شخصه من الخصال الحميدة ، ماهو اهل للتقدير والتنويه والتذكير ، لاعني هنا الاريحية البغدادية والطيبة العراقية والشيم الاصيلة ، وهي ايضا من اسباب شهرة مقهاه لتصبح احدى معالم الحياة الاجتماعية في بغداد وابرزها ، وانما اعني هنا تحول هذا المرفق الى مظهر جسيم من مظاهر الحياة الادبية في العراق منذ اكثر من ربع قرن ، بعد ان افل عهد مقاهي الادب ، ولم يبق منها الا (الشابندر) العتيد .وهذا امر جدير بالتحقيق والتنبه .

رفعة عبد الرزاق محمد

عرفت الحاج محمد الخشالي من اواسط السبعينيات من القرن المنصرم ، وان كنت ارتاد سوق السراي وشارع المتنبي قبل ذلك بسنوات ، ولي مع كتبيها ووراقيها صلات وذكريات جميلة ، وادركت من اسرارها الشيء الكثير ! ، غير ان البدء بالبحث والتتبع ومن ثم الكتابة يعود الى ركنين من اركان شارع المتنبي ، اولهما مكتبة المثنى ، والثاني مقهى الشابندر وصاحبها . ففي الاولى اطلعت على عالم فسيح ومترام من المعرفة والتلقي والادراك ، عالم الكتب واحواله ، فقد لقيت من اسرة المكتبة ما لانساه مهما حييت من الود والثقة والفائدة . وفضلا عن الاسماء الكبيرة في عالم التاليف والفكر ممن تعرفت عليها او اطلعت على شمائلها في هذه المكتبة ، فقد كان لمقهى الشابندر دور لايقل عن ذلك في لقاء اسماء لامعة من اعلام الادب والعلم والمجتمع بشتى مشاهد الحياة العامة ببغداد .

كنت صغيرا عندما رايت الشابندر وما يعج به ، ففي منتصف الستينيات ، كان خالي يعمل في مكتب للرسم الهندسي بجوار المقهى ، مكتب المهندس ناصر المدرس ، وفي ايام العطلة الصيفية كنت ارافق خالي الى مكتب عمله . وكانت مكاتب الرسم الهندسي العديدة تحيط بالمقهى ، واحواض الماء امام كل مكتب ، اذ كان خرائط الدور وغيرها ترسم على ورق خاص ينقع بالماء ، ثم تلحق الخارطة بمعاملة اجازة البناء التي تصرف من امانة العاصمة القريبة من المقهى . كان المقهى يومذاك يعج بالمحامين ومتعقبي المعاملات الحقوقية المختلفة ، فقد بناية المحاكم المدنية قبالة المقهى ، وهي اليوم مركزا ثقافيا تابعا لمحافظة بغداد . وكان عدد كبير من المحامين يتخذ من مقهى الشابندر مقرا لعمله ومكانا للقاء مراجعيه من اصحاب القضايا والمتظلمين .

وامام المقهى ككانت بناية عثمانية قديمة ، تسمى الاكمكخانة ، او المخبز العسكري ، بقيت بهذه الوظيفة وهي صناعة الصمون العسكري من تاسيسها في اواسط القرن التاسع عشر حتى بداية السبعينيات ، فهدمت وتحول موقعها الى عمارة جميلة ببوابة كبيرة تطل على الشارع ، شغلها صاغة الذهب الذين سئموا ضيق سوق الذهب الواقع خلف تلك البناية ، وفي السنين الاخيرة امتلأت بالمكتبات ومخازن الكتب والقرطاسية . لقد ادركت سيارات الجيش حاملة اقفاص حديدية لنقل الصمون الى دوائر الجيش ووحداته تقف امام المقهى بصف طويل . كما لانسى باعة الصمون الاسمر امام سوق السراي وبعض باعة الكتب وهم يصرخون باعلى اصواتهم عارضين عناوين معينة مثل (تعلم الانكليزية بسبعة ايام) او (كيف تصبح مليونيرا) او (دع القلق وابدأ الحياة) وسواها .

في تلك المشاهد الجميلة ، سقى الله ايامها الخوالي ، ولجتُ مقهى الشابندر ولم ازل صغيرا يافعا ، وكان لفارق العمر مع الحاج محمد الخشالي ، متعه الله بالصحة والعمر المديد ، السبب في تأخر صلتي به الى اوائل الثمانينيات ، عن طريق احد اصدقاء الخشالي وكان يشغل مكانه في المقهى صباحا ، وهو المرحوم خضير البياتي ، احد العارفين باحوال بغداد وقراء المقام فيها ، فقد كان خبيرا بالمقام واصوله بشكل كامل . كان الخشالي يعمل نهارا بعمل دقيق وهو ما يسمى (الخبير) في معاملات البناء والاراضي ، اذ كانت الدوائر القضائية تستعين بخبراء من خارج المحاكم او الدوائر الرسمية لمعرفة ما تريد معرفته .

اخذت علاقتي بالخشالي تتطور يوما بعد يوم ، اذ كان حديثنا عن بغداد وتاريخه جامع لهذه العلاقة ، ان ذاكرته استوعبت بغداد الحديثة ووقائعها العامة منذ الثلاثينيات ، وتعتمد في كثير من الاحيان على مشاهداته الشخصية ، مما يضيف اليها اهمية ، على الاقل بالنسبة لي ، وانا الشغوف بمتابعة تاريخها ، اللهوف الى سماع اخبارها الماضية .

× ولد الحاج محمد بن كاظم بن محمد بن سعودي بن صالح بن عبدالله بن مصطفى الخشالي القيسي البغدادي ، في محلة الحيدرخانة بالجانب الشرقي من بغداد سنة ١٩٣٢ ، وكانت هذه المحلة العريقة مربعا للعديد من الاسر العربية الكريمة ، فضلا عن دور عدد كبير من موظفي الحكومة العثمانية من مختلف الاديان والقوميات ، فقد سكن عدد من الاسر الخشالية القيسية النسب ، بعض انحاء هذه المحلة الواقعة بوسط بغداد القديمة ، وتديرت على سبيل التحديد زقاق غير نافذ وملاصق لحائط جامع الحيدرخانة الجنوبي ، سمي فيما بعد ب (عكد الخشالات) . وقد برز في هذه الاسر عدد كبير من الاسماء اللامعة ووجوه المجتمع .

نشأ محمد الخشالي نشأة عصامية ، كاخدانه من ابناء محلته ، ثم انخرط في الدراسة والتلقي ، وفي سنة ١٩٤١ توفي ابوه ، معيل الاسرة الوحيد ، وهو لم يزل على مقاعد الدراسة المتوسطة ، لتضطره الايام الى ترك الدراسة ومواجهة الحياة القاسية بكل تفاصيلها . لقد خلف والده اسرة كبيرة لامعيل لها في ظروف صعبة للغاية (الحرب العالمية الثانية) ... وهكذا دخل مدرسة كبيرة بتجاربها ودروسها العملية ، مدرسة الحياة التي علمته الشيء الكثير والهمته الهمة وروح الكفاح ومواجهة الصعاب ، وانعم بها من مدرسة . غير انه آثر الاستمرار في تلقي العلم والمعرفة بسبل اخرى ، فكانت القراءة هوايته الاولى ، بعد ان اكمل الدراسة المتوسطة فيما بعد ، ثم اردف ذلك بدراسة علوم القرآن الكريم واصول تجويده على عدد من مبرزي القراءة القرآنية البغدادية ، وفي طليعتهم السيد حيدر الجوادي . وعندما اقدمت وزارة الاوقاف على فتح دورة علمية لدراسة القرآن الكريم في جامع الحيدرخانة ، تقدم اليها وحاز فيها درجة متفوقة (٩٥ بالمئة) . ولم تزل علاقته الوطيدة بقراء القرآن و الذكر البغدادي عامرة الى اليوم .

كثيرا ما ذكر امامي ، ان المرحلة المهمة من مراحل التلقي ، كانمت على يد العلامة الشيخ عبد الكريم المدرس (بيارة) ، وهو عالم كبير تدير بغداد منذ اواسط القرن الماضي ، ثم استقر به المطاف في الحضرة القادرية ، مدرسا ومرشدا وعالما كبيرا ، جمع بين المعقول والمنقول ، وبين التصوف وعلوم الشريعة ، فكانت مؤلفاته الكثيرة باللغتين العربية والكردية موضع اهتمام الجميع ، وكان مريدوه في كل حدب وصوب . ومن مريديه الحاج محمد الخشالي ، الذي لم تنقطع صلته باستاذه الى النهاية . وبعد رحيل المدرس ، اعد الخشالي كتابا عنه ، وقام بتوزيعه مجانا على الناس . ويبدو ان صلته بالمدرس ، كان الجانب الصوفي الغالب عليها ، فالخشالي قريب من الصوفية وطرقهم في العراق .

حدثني مرة : ان من بين المؤثرين في بناء شخصيته ، كان احد رجال الطريقة الرفاعية ، وهو السيد جاسم بن السيد محمد ابو عجّة ، اذ كان ياتي من مدينة (الدّور) الى بغداد في ايام معينة من السنة ، وكان الخشالي يلازمه كظله ، ويستفيد من توجهاته الروحية ، فتعلم على يديه مباديء الطريقة الرفاعية التي اعتنقها منذ فتوته .

ان طلب العلم والوقوف على صور المعرفة ، لم يمنع الحاج محمد الخشالي من طلب الرزق الحلال ، فعمل باعمال مختلفة ، حتى انتهى به الامر الى ادارة مقهى الشابندر ، كما مارس الخبرة في المحاكم العراقية فيما يخص قضايا العقار وما اليها ، وقد عرف بنزاهته واتقانه ، وعدم اخذه في الحق لومة لائم في القضايا التي طلب اليه النظر فيها . كما فتح مطبعة تجارية باسم (مطبعة ابن عربي) ، حيث اكسبه وجوده الطويل في شارع المتنبي ، شارع المطابع والكتب ، معرفة بها وباصولها ، وهي اليوم بادارة احد انجاله الكرام . لقد شجع ابناءه على عدم الابتعاد عن مركز عمله في شارع المتنبي ، فتراهم قد امتهنوا وظائف الشارع المعروفة .

لاود هنا ، وانا اتحدث عن ابنائه ، ان اثير شجونا عميقة واحزانا قاسية ، فاتحدث بالكارثة العظمى التي حاقت باسرة الحاج محمد الخشالي ومقهاه ومطبعته ، ضحى يوم الاثنين الخامس من آذار ١٩٩٥ ، عندما قام الحقد الاسود بتفجير شارع المتنبي من الموقع التي تقع فيه مقهى الشابندر ، وادى ما ادى اليه من جرح لن يندمل على مدى الايام . وللحديث عن ذلك في مقال مقبل !

غير ان ما عرف به الخشالي ، هو مقهاه الشهير ، الموسوم (مقهى الشابندر) ، المعلم التراثي الرائق ببغداد ، والمنتدى الادبي الكبير . لقد اسس هذا المقهى عام ١٩١٧ ، في البناية نفسها التي شيدها الحاج محمد سعيد الجلبي في اوائل القرن العشرين ، لتكون محلا لمطبعة حديثة جلبها الى بغداد ، فقامت بنشر عدد من الكتب نشرا فاخرا ، وبعد وفاته اخذ ابنه محمود جلبي الشابندر على عاتقه ادارة اعمال والده التجارية المختلفة ، ومنها المطبعة . وفي الايام الاولى من الاحتلال البريطاني لبغداد عام ١٩١٧ ، وبوشاية ظالمة من تجار آخرين ، اعتقلت السلطة المحتلة الشابندر ، واتهمته بمراسلة الاتراك ، فنفته الى خارج العراق ، وصادرت مطبعته ، واعطتها الى اخرين ، وبعد فترة ، عاد الشابندر الى بغداد ، ليعود الى نشاطه التجاري ويعيد مجد بيته التجاري .

لم يشأ محمود جلبي ان يعيد مطبعته ، فصفى اعمالها ، وسمح بموقعها ان يصبح مقها باسم مقهى الشابندر ، وذلك في الشهر الاخير من عام ١٩١٧ ، لتبقى الى اليوم بالاسم نفسه بعد ان اندثرت محال عديدة كانت تحمل الاسم نفسه ! (توفي محمود الشابندر عام ١٩٣٥ وهو والد الوزيرين السابقين في العهد الملكي موسى وابراهيم الشابندر) .

لقد كان لموقع مقهى الشابندر في شارع المتنبي ، شارع الثقافة والصحافة والمطابع ، ومركز رئيس من مراكز المشهد الثقافي في بغداد ، وقريبا من من بناية المحاكم المدنية القديمة ، وابنية القشلة والسراي والمتصرفية ، الاثر الواضح في ان يصبح المقهى مركزا اجتماعيا ذا طبيعة خاصة ، تفترق عن مقاهي بغداد قاطبة . فقد كان وما زال ملتقى الادباء والكتاب ممن يقصدون الشارع بحثا عن آخر المطبوعات او اقدمها ، ورجال القضاء والمحاماة ومراجعيهم ممن يطمح في ان تحل شكواه ، او رجال الصحافة قبيل ان تتحرك عجلات المطبعة لتخرج جرائدهم او بعدها ، او موظفي الدوائر الكثيرة في هذه المنطقة القديمة .

ولعل من المفيد ذكره ، ان ابرز ما تراه في الشابندر ، وربما كان سببا في استمرار نشاطه المذكور ، فضلا عن مزايا صاحبها الخشالي ، هو الوقار والهدوء وهما غالبان

نشأ محمد الخشالي نشأة عصامية ، كاخدانه من ابناء محلته ، ثم انخرط في الدراسة والتلقي ، وفي سنة 1941 توفي ابوه ، معيل الاسرة الوحيد ، وهو لم يزل على مقاعد الدراسة المتوسطة ، لتضطره الايام الى ترك الدراسة ومواجهة الحياة القاسية بكل تفاصيلها . لقد خلف والده اسرة كبيرة لامعيل لها في ظروف صعبة للغاية (الحرب العالمية الثانية) ... وهكذا دخل مدرسة كبيرة بتجاربها ودروسها العملية ، مدرسة الحياة التي علمته الشيء الكثير والهمته الهمة وروح الكفاح ومواجهة الصعاب

على اجواء المقهى ، فلا تجد فيه من وسائل اللهو او نحوها لامن قريب او بعيد ، سوى (النركيلة) على الطريقة القديمة ! ولا تجد رواده الا من انكب على كتاب يطالعه بلهفة ، او من يسوح في جريدة او مجلة حديثة او قديمة اقتناها ممن افترش الارض بائعا لثمرات المطابع ، (وهذه الظاهرة الجميلة لم تكن معروفة في الشارع قبل التسعينيات ، اذ ادت سنوات الحصار والعقوبات الدولية الى نشوء العديد من المظاهر المتصلة بالواقع الاقتصادي المتردي الذي طال الطبقات المسحوقة ليس الا) . او من يتهامس مع آخرين حول قضية ادبية عويصة ، او حدث تاريخي منسي ، او وثيقة ادبية او سياسية شاردة ..

كان غناء المقام العراقي في مقاهي بغداد الكبيرة شائعا ، وربما بدأ شيوعه منذ ان تاسس اول مقهى ببغداد واستمر الى ثلاثينيات القرن الماضي ، وكان لكل قاريء مقام مقهاه الاثير ، فاحمد الزيدان كان يقرأ في مقاهي سبع والقيصرية والشط ، ونجم الشيخلي قرأ في مقهى عزاوي او مقهى وهب (القلعة) وجميل بغدادي في مقهى سلمان في الصالحية وخليل رباز في مقهى المميز ومحمد القبانجي في مقهى استاذه قدوري العيشة ، اما رشيد القندرجي فقد كان يقرأ اولا في مقهى القيصرية ثم استقل بمقهى الشابندر . سمعت من المرحوم هاشم محمد الرجب ان القندرجي ويوسف حوريش كانا يجدان في الشابندر من الاهتمام والراحة مالا يجداه في غيره ، وان آخر مقهى قرأ فيه المقام هو الشابندر وان الحفلة التي جرت في رمضان من عام ١٩٤٠ كانت الحفلة الاخيرة ، ولعل انزواء مقهى الشابندر بعيدا عن ضوضاء شارع الرشيد مساءا ، كان السبب في بقاء حفلات المقام الى ذلك التاريخ .

كتب فقيد الصحافة والادب المرحوم عبد القادر البراك ، وكان ممن ارتاد المقهى منذ الثلاثينيات الى ان توفاه الله سنة ١٩٩٥ ، قائلا عن الشابندر :

كان يرتادها وجهاء وسراة بغداد في اول النهار لقربها من دوائر المحاكم والطابو وامانة بغداد ، ويرتادها بعد الظهر عدد كبير من ادباء وشعراء بغداد امثال الشاعر الاستقلالي عبد الرحمن البناء صاحب جريدة (بغداد) والشاعر الكبير ابراهيم ادهم الزهاوي والشاعر خضر الطائي مؤلف المسرحيات الشعرية والشاعر عبد الستار القره غولي المربي المعروف ورجل السيف والقلم نعمان ثابت عبد اللطيف صاحب ديوان (شقائق النعمان) وعلي ظريف الاعظمي صاحب مجلة (الاقلام) ، والكتب التاريخية ، وولده الشاعر الحقوقي حسين الظريفي والمرحوم عبد الكريم العلاف صاحب مجلة (الفنون) الشاعر المطبوع ورائد الاغنية العراقية ومؤلف الكتب القيمة . وكان من بين رواد المقهى مطرب العراق الاول الاستاذ محمد القبانجي الذي كان يزور اصدقاءه الشعراء والشيخ جلال الحنفي الذي كان يلم بها وقت فراغه وغيرهم ممن لا تحصيهم الذاكرة . (ج . العراق ٧ ايلول ١٩٨٣)

يمكن الاستدراك كثيرا على ما كتبه المرحوم البراك ، ممن سمعنا بارتياده المقهى ، او ادركناه ونعمنا بمجالسته فيه . وقبل سنوات حاولت مع الخشالي تنظيم قائمة برواد الشابندر قديما وحديثا ، ولعلها فقدت في كارثة ٢٠٠٧ مع مافقد من محتويات غرفة المكتبة التي كان الخشالي يجد راحته وسلوته فيها .

وعلى طريقة الاقدمين ، فقد كتب الحاج محمد الخشالي مجموعا ادبيا وتاريخيا رائقا بما كان يسمع او يقرا من طرائف الاخبار ونوادرها ، احتجن معلومات مختلفة عن الحياة الثقافية والاجتماعية في بغداد وغيرها من اخبار ونقل وذكريات ... ومن المؤسف حقا ان نتردد في استنساخه قبل ان تطاله الكارثة فيحترق مع ما احترق من موجودات غرفة الخشالي من مجلدات الصحف القديمة والاضابير القضائية التي تمكن من انقاذها من الرمي في دجلة عند البدء بتجديد بناية المحاكم القديمة في اوائل التسعينيات وبعض التحف الشعبية ومجموعة نفيسة من الادوات التي كان الصوفية في الاجيال الماضية يستخدمونها في محافلهم وتكاياهم ، فضلا عن مئات الكتب النادرة .

جدران المقهى تغص بالصور النادرة لاحداث واعلام ومواضع مختلفة من العراق ، ولعل هذه المجموعة النفيسة المحفوظة في مقهى الشابندر ، من اكبر المجموعات الوثائقية المصورة والمعروضة للمواطنين ، لقد قضت نكبة ٢٠٠٧ على مجموعة هائلة من الصور كانت معروضة او محفوظة في مكتبة الخشالي ، وكنا نقضي ساعات في معرفة ما تضمه هذه الصور والتعليق عليها قبل عرضها في المقهى ، وضاعت كما ضاع الاعز منها وهو كثير ! . الا ان همة الخشالي وحرصه على اعادة الحياة ، احيت المتحف المصور واضاف اليه النادر و الفريد .

ومن المحزن ان يتعرض الحاج الخشالي ولمرات عديدة الى محاولات للابتزاز او التهديد او الاغراء وبوسائل متعددة لخطف المقهى منه ، وتغييره الى محال تجارية . وفي كل مرة يخرج الخشالي منتصرا لكنه حزينا ، فان حرصه على بقاء مقهاه وباسمه التاريخي وما يحمله من ذكريات جميلة او مؤلمة ، سببا من اسباب البقاء والتفاؤل .. قال لاحدى وسائل الاعلام عام ٢٠٠٥ : المقهى دمي وعروقي ، وانا حريص على بقائه ومصاحبته واوصي اولادي من بعدي بعدم التخلي عنه ، فهو ناد للحوار والصداقة والتعارف .

وبعد ُ فأن الحديث عن الاب والاخ والصديق الحاج محمد الخشالي ومقهاه الكبير مقهى الشابندر ، حديث طويل ماتع ، فالصدر يحمل من الذكريات والتداعيات الجميلة الشيء الكثير ، ولعل الايام القابلة جديرة بتجديد الحديث ..

الخشالي مع كاتب المقال

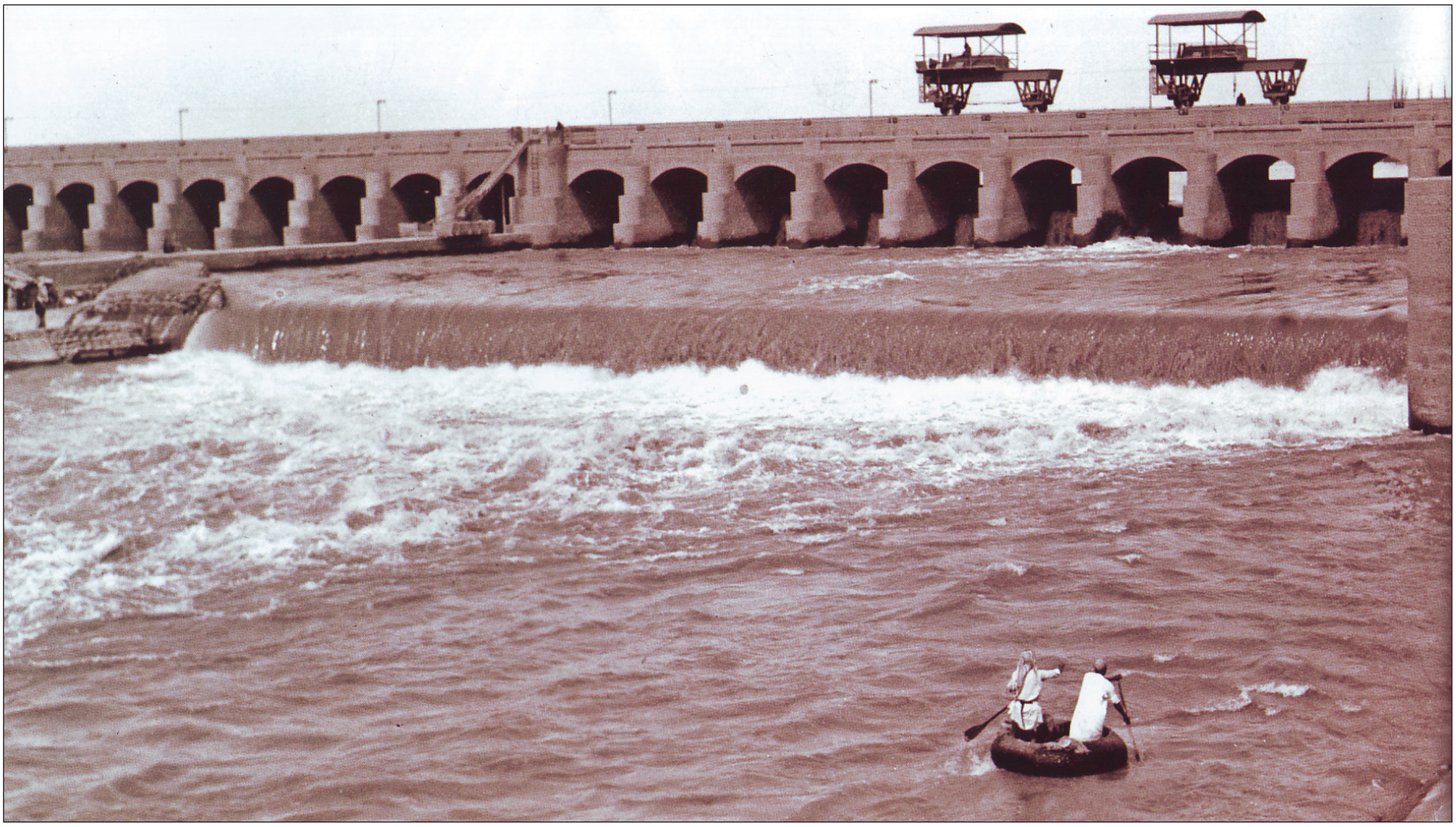

مشروع سدة الهندية في الحلة من خلال جريدة الزوراء العراقية

د. طارق نافع الحمداني
باحث اكاديمي

١ . فكرة المشروع

لاتعود فكرة مشروع سدة الهندية الى السنة التي وضع فيها هذا المشروع موضع التنفيذ عام ١٨٨٩ م ، وانما له خلفياته التاريخية اسما وحدثا ، فتسمية نهر الهندية (بالهندية) انما تعود لأحد الهنود المسمى آصف الدولة .وزير محمد شاه الهندي .حيث تبرع لحفر نهر يوصل الماء الى مدينة النجف ابتغاء الثواب والاجر. وصادف ان تحول الماء الى هذا النهر بسبب انخفاض ارضه عن الارض التي يمر بها الفرات الى مدينة الحلة والديوانية ، فانقطع الماء عنهما مدة من الزمن حتى انه انقطع تماما عام ١٣٠٤ هـ/ ١٨٨٦م الا في حالة الفيضان . ولما كان لواء الحلة و الديوانية يقعان على النهر الاصلي وان معظم واردات الدولة منهما . قررت الحكومة إقامة سدة على نهر الهندية ليستقيم مجرى الماء. ومن الجدير بالذكرفأن العمل بهذا المجرى قد تم في اوائل القرن التاسع عشر. ومما يؤيد ذلك ان الرحالة الفارسي الميرزا ابو طالب خان ، الذي كان قد غادر بغداد في ١٤ ذي القعدة ١٢١٧ هـ / اول اذار ١٨٠٣ لزيارة الاضرحة المقدسة في كربلاء و النجف قال:

"وبعد ان قمت بواجب الزيارة في كربلاء وبارحتها قاصدا النجف
بطريق الحلة فقدمت اليها في اليوم بعينه ، وفي هذه المدينة الاخيرة
. التي هي على مسافة ستة عشر فرسخا رأيت في طريقي قناتين:
الاولى تسمى نهر الحسيني (الحسينية). على بعد اميال قليلة كربلاء .
والثانية تسمى نهر الهندي (او الهندية) ، او الآصفي لأن
آصف الدولة حفره بنفقاته وهو اعرض من نهر الحسيني ،
والغرض من حفره ايصال الماء الى مرقد الامام علي . الا انه لم
يصل الى النجف لأن باشا بغداد والناظر في شؤون القناة جعلها تمر
بالكوفة وعدة مدن اخرى ،بحيث لاتزال بعيدة عن الوصول الى
موضعهاالمقصود ، ومع هذا فالاعمال مداوم عليها".

ويؤخذ من الروايات التاريخية ان المياه بدأت تتحول بصورة سريعة من فرع شط الحلة ، الذي كان يؤلف مجرى الفرات الرئيسي في ذلك الوقت ، الى فرع نهر الهندية ، بحيث تطلب الامر اتخاذ بعض التدابير لايقاف توسع هذا المجرى . وكانت اول محاولة لتوجيه قسم من ماء نهر الفرات الى فرع الحلة هي التي قام بها علي رضا باشا (١٨٣١. ١٨٤٢)، ومحمد نجيب باشا (١٨٤٢. ١٨٤٩)حيث انشئ هذان الوالیان سداً على فرع الهندية بغية تحويل مياه الفرات الى فرع الحلة ، وحاول عبد الكريم نادر باشا (١٨٤٩. ١٨٥١) غلق الفرات في صدر فرع الهندية بواسطة ناظم بناه من الاجر ، الا انه اتهدم في عام ١٨٥٤ .

ومع ذلك كله ، فأن الولاة العثمانيين لم يعيروا نظام الري والسيطرة على مياه دجلة و الفرات اهمية كبيرة ، لتنظيم مياههما والسيطرة على الفيضانات فيهما اذ يظهر ان نصف كمية المياه في نهر الفرات خلال سنة ١٨٨٧ كانت تمر بشط الحلة (كما كانت الاوضاع في سنة ١٨٤٩) ، في سنة ١٨٨٧ فأن شط الهندية اصبح المجرى الرئيسي وبذلك هددت المناطق الزراعية الواقعة على المجرى القديم (اي نهر الحلة) بينما تعرضت الاراضي المحيطة بالمجرى الجديد (اي نهر الهندية) للفيضانات.

ولمناسبة انخفاض مناسيب المياه في نهر الفرات خلال العام ١٨٨٢ في الحلة ، لجأ الاهالي الى عمل السداد في اكثر من ثلاث عشر موضعا داخل قضائي السماوة والشامية . وافادة مراسل جريدة الزوراء في السماوة ان السدات المعمولة من قبل الاهالي لم تبق من الرميثة الى موقع السماوة طريقا حتى لمرور الزوارق الصغيرة، وان البضائع التجارية صارت تنقل براً ، وان اراضي نهر الهندية المتشعب من الفرات منخفضة عن اراضي نهر الحلة ، مما جعل ميل الماء الى تلك الجهة قد تزايد.

ولابد لنا ان نشير بهذه المناسبة ، بأن انخفاض مجرى نهر الهندية لم يكن هو السبب الوحيد في تحول مياه نهر الفرات اليه ، وانما كان لتراكم الطمى في مجرى نهر الحلة وعلى الاخص في منطقة أهوار الملوم قد ادى الى ارتفاع تلك المنطقة على مرّ الزمن بحيث لم تعد لها قادرة على استيعاب كل مياه الفيضان ، فأضطرت المياه الزائدة على ان تجد لها عن منفذ تجري فيه ، فكان ان وجدت في جدول الهندية منفذاً ملائماً فتحولت ، واتجهت نحو اراضي بحر النجف المنخفضة. وهكذا شقت المياه طريقها في جدول الهندية فتوسع حوضة بحيث لم يمض وقت طويل حتى اخذت كل مياه النهر تجري فيه.

ومهما يكن الامر، فأن هذه التحولات في مجرى نهر الفرات التي جرت الى نتائج سلبية كثيرة ، ارتبطت بالزراعة والقبائل التي كانت تستوطن حوض نهر الفرات الاوسط والجنوبي. اذ ان شحة مياه نهر الحلة وجفافها في بعض المناطق ، وتحول قسم من الاراضي الزراعية في قضاء سوق الشيوخ في المنتفق الى اهوار ومستنقعات قد اثرت على زراعة بعض العشائر منذ اواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر. فقد اضطرت بعض جماعات من تلك العشائر الى التفرق والتشتت و النزوح الى مناطق نهر الفرات في المنتفق ، وبعض مناطق نهر الشنافية في الديوانية وبين عشائرها ، بل اضطرت جماعات اخرى من تلك العشائر الى ان تعيش متنقلة في تلك البراري ، ونزحت جماعات اخرى الى بعض المدن للاشتغال ببعض الاعمال او الهجرة الى الاحواز كما هو الحال بالنسبة لعشيرة بني اسد.

ان هذه التطورات التي شهدتها مناطق الفرات الاوسط ، هي التي دعت الحكومة العثمانية الى استدعاء مهندس الري الفرنسي (شوندورفر) ، للقيام ببناء سدة عند مدخل فرع الهندية ، فبنيت السدة بالطابوق الذي تعاقدت السلطات الحكومية مع رؤساء قرى مختلفة على تزويدها به من خرائب بابل.

وانتهى العمل من تشيد السدة في سنة ١٨٩٠ ، وتم افتتاحها برعاية والي بغداد سرّي باشا ، ووسط احتفالات ضخمة شاركت فيها بعض القطعات العسكرية ، والعشائر ووجهاء بغداد و الحلة وكربلاء .

وادى بناء تلك السدة الى رفع منسوب المياه في فرع الفرات بمقدار مترين، وبالتالي الى تحول ثلثها الى مجراها الاصلي، اي الى فرع الحلة ودخول ثلثيها الباقيين الى فرع الهندية . وقد ساعد ذلك على احياء مساحات كبيرة من الاراضي بما فيها اراضي السلطان عبد الحميد المعروفة بالأراضي السنية .

ويعلق سليمان البستاني على هذا الانجاز بقوله:

"قدرت النفقات الازمة لبناء سدة الهندية بثمانمائة الف فرنك لا
غير. وقد كان الولاة قد انفقوا اضعاف ذلك المبلغ ، فلم يأت ثمره.
فأرصد المال في الحال واقدم شندرفر واعوانه على العمل بعلم
واخلاص بضعة اشهر وانتهوا منه سنة ١٨٩٠، فرجعت المياه الى
مجاريها وعمرت الحلة بعد ان كانت على قيد شبرين من الخراب
التام . وحيث الوف الاجربة من املاك الاهالي ومستمسكات الخزينة
الخاصة ، وهذا هو العمل الوحيد من نوعه في ايام الحكومة
الغابرة .

ومما يذكر ان سدة الهندية كانت قد انهارت عام ١٩٠٣ ، مما ادى الى جفاف فرع الحلة وتحول معظم مياه الفرات الى فرع الهندية مرة اخرى ، مما عرض مدينتي الحلة والديوانية الى الجفاف . وقد حفز هذا الامر الحكومة العثمانية على الاهتمام بالامر مرة اخرى فانتدبت المهندس الانكليزي وليم ويلكوكس الذي كان يعمل انذاك في مصر . الى العراق لاعداد دراسة حول طرق استغلال مياه نهري دجلة والفرات بالشكل الامثل . والى جانب ذلك فقد كلفت الحكومة العثمانية عام ١٩٠٦ المسيو لوتي كوونيه . وهو احد خبراء الري في اوربا للنظر في امكانية بناء السدة مرة ثانية .

وبقيت الحالة سيئة في شط الحلة الى ان عمدت الحكومة بصورة جدية باعادة بناء سدة الهندية ، حيث انتدبت لهذا الامر المهندس المعماري الانكليزي السير وليم وليكوكس مرة اخرى ، الذي وصل الى العراق في اواخر سنة ١٩٠٨ بصحبة عدد من المهندسين . وقد ابتدأ العمل في سدة الهندية عام ١٩١١ ، واستغرق بناؤها حوالي سنتين وتسعة اشهر ، حيث انتهى العمل

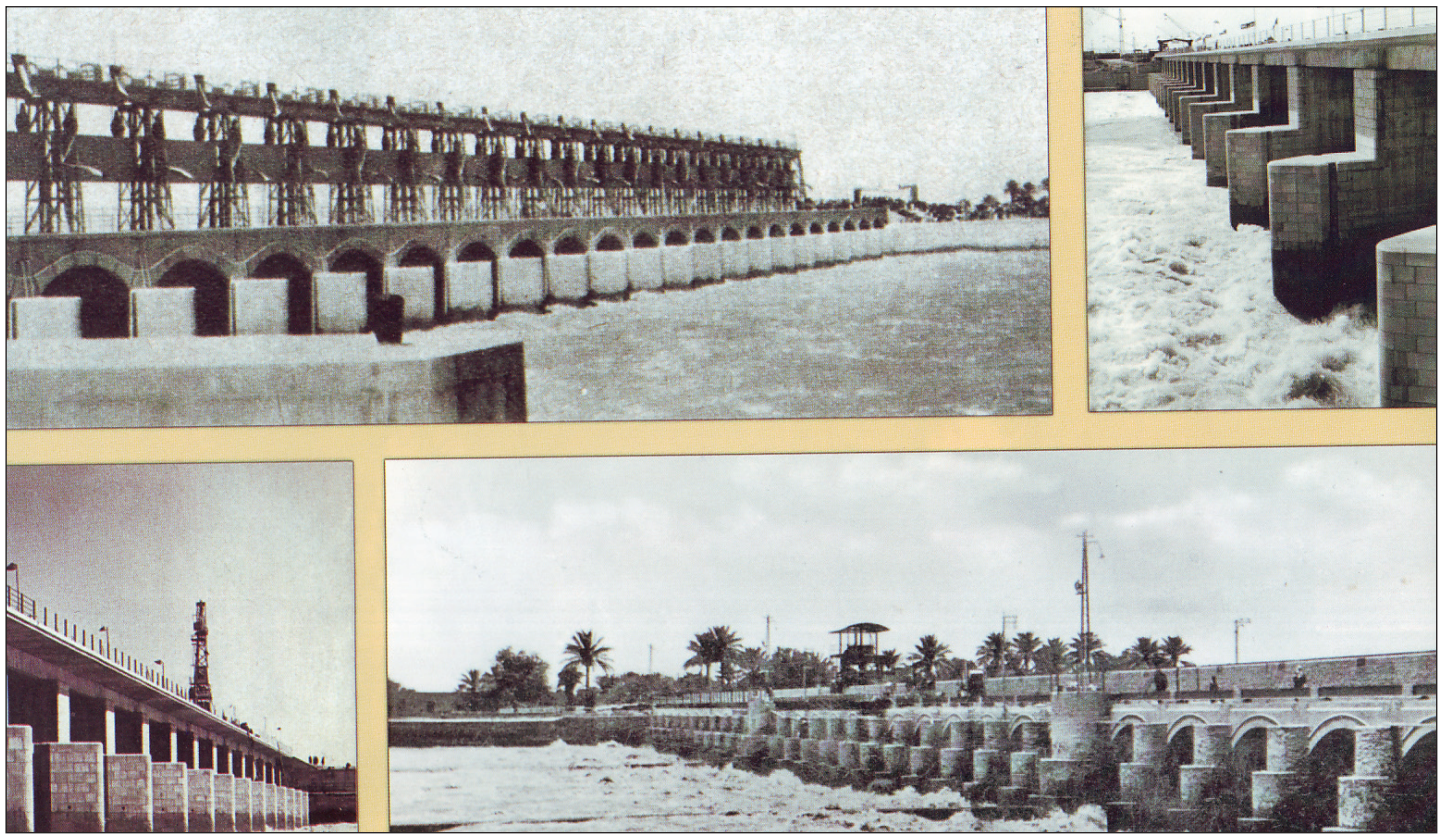

منها عام ١٩١٣.

٢ . اخبار سدة الهندية في جريدة الزوراء :

من المعلوم ان جريد الزوراء كانت من اوائل الصحف الرسمية العثمانية التي صدرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر شأنها في ذلك شأن (الجوائب)التي صدرت في الاستانة باللغة العربية عام ١٨٦٠ ، وصحيفة (سورية) في دمشق عام ١٨٦٥، وصحيفة (لبنان) في جبل لبنان عام ١٨٦٧ ، وصحيفة (الفرات) في حلب عام ١٨٦٧ ، وصحيفة (الزوراء)في بغداد عام ١٨٦٩.

على ان تنظيم اصدار الصحف الرسمية في الولايات العثمانية كان وفق تنظيمات وتشريعات خاصة اصدرتها الدولة العثمانية عام ١٨٦٣ ،ونظمت الرقابة على الصحف بموجب قرار اخر صدر عام ١٨٦٧ . وبموجب تلك التنظيمات.كما اكدت الزوراء تقرر ان تؤسس في مركز كل ولاية من ولايات الدولة العثمانية مطبعة تقوم بنشر جريدة رسمية ناطقة باسم الحكومة العثمانية وبلغتين الاولى تركية ، والثانية عربية ، وتسمى باسم يناسب مكان طبعها ونشرها ، وكان اصدار (الزوراء) وفقا لذلك الاتجاه.

تعد الزوراء ايضاً اول صحيفة رسمية صدرت في العراق ، وكانت تصدر بالغتين العربية و التركية . وقد حرر فيها اول الامر بعض موظفي ولاية بغداد ممن لم يحسنوا العربية ، لذا جاء القسم العربي منها متباينا في الاسلوب وعباراته المضطربة ، وكثيرة اللحن ، وكانت افكاره مرتبكة .

وقد تداركت السلطة هذا الامرفأناطت تحرير قسمها العربي بجماعة من رجال العلم والادب من العراقيين منهم احمد عزت الفاروقي واخوه علي رضا، ثم توالى على تحريرها عدد من الكتاب والادباء البارزين امثال احمد الشاوي ومحمود شكري الالوسي وغيرهم.

وكانت الزوراء تنشر الكثير من الانظمة والقوانين والاوامر الادارية ، معتمدة في ذلك على ما كان يرسله المراسلون الصحفيون المكلفون بالكتابة للجريدة ، وما يرسله قرّاء الجريدة على اختلاف مستوياتهم الثقافية . ويشكل المراسلون الصحفيون العمود الفقري في جريدة الزوراء ، اذ كان عليهم تغطية اخبار الولايات و الاقضية التابعة لها بصورة كاملة ، على ان تكون التغطية دقيقة ولاتجتنبها الاهواء ولا الرغبات ، وقد اصدرت الزوراء وثيقة تضمنت ضرورة توفر هذه الشروط في مراسليها .

على ان الزوراء كثيراً ما ابدات تذمرها وشكواها من مراسليها وقرائها لعدم موافاتها بالاخبار الكافية لأرتقاء الجريدة . ووضعت اللوم على كل اولئك الذين لا يتحدثون عن سدة الهندية ، ويبينون فوائدها وتساءلت بقولها :

"فما بالهم لايتحدثون عن سدة الهندية ، هذا الحدث الجسيم ، ولا يذكرون منافعه ، ومالهم غافلون عما اجراه المأمرون الكرام من زائد السعي والاهتمام باحياء مجرى الفرات . اذ ان الفرات العظيم قدحول مجراه القديم ، ذلك المجرى الواسع الذي كان منذ بداية الخليقة مجرى للسعادة و الثروة ، وقد اصبح اليوم براً مقفرا . وهذا لواء الحلة الفيحاء الواسع الانحاء الذي كان محفوفاً بحدائق وجنات راقبية ومياه لطيفة بحيث يليق ان يقال فيها "جنات تجري من تحتها الانهار" ، وقد يبس من العطش ، فهي اليوم خاوية على عروشها ، فأخذ اهلها وهم مئات الاوف يهاجرون عنها كرها ويلقون انفسهم هنا وهناك.

ومهما يكن الامر ، فقد تابعت الزوراء اخبار سدة الهندية اولاً بأول ، حيث نقلت لنا اخبار الاتصالات التي اجرتها السلطات العثمانية مع المهندسين الفرنسيين الذين استقدموا لدراسة المشروع وتقاريرهم حوله ، وموافقة السلطات العثمانية على المباشرة به وتثبتت اليوم الذي يوشر فيه العمل بسدة الهندية حيث قالت:

"بلغنا ورقة من مخبرنا في موقع سدة الهندية ابان فيها انه قد بوشر بعمليات السد لاجل منع مياه نهر الفرات واعادتها الى مجراها القديم".

ومن المناسب في هذا الموضع الاشارة الى ان جريدة الزوراء تحدثت عن سدة الهندية والاسباب الموجبة لانشائها بصورة واسعة ومفصلة ، حيث ذكرت ان نهر الفرات قد صار له مجريان ، الاول يذهب الى لواء الحلة واراضيه الواسعة، والاخر يمر على قضاء الهندية وسائر ملحقات كربلاء ثم يروي اطراف المنتفق . ولكون مبدأ مجرى الهندية اكثر انخفاضا من مبدا نهر الحلة فقد صار الفرات يميل نحو الهندية شيئاً فشيئاً . وبمرور السنين توسع المجرى المذكور ، وجلب اكثر مياه الفرات ، واوشك نهر الحلة على النضوب و الجفاف بصورة تامة. واذا ماحدث ذلك فان لواء الحلة وما فيها من بساتين وحقول واراضي واسعة سوف تتعرض للتلف .هذا الى جانب ان زيادة مياه نهر الهندية اضعافاً مضاعفة سيغرق ويخرب ما يمر عليه من املاك وأراضي منبتة وبساتين وضياع كثيرة "ولذا فقد لزم الامر .كما تقول الزوراء اتخاذ تدابير عاجلة ومثمرة لأجل تحويل ميل الفرات نحو مجرى الهندية.

ومن اخبار الزوراء عن سدة الهندية ما ذكرته من ان مهندس الطرق والمعابر المستر بول شوندورفر ومعاونه تيودور ووران قد وصلا الى بغداد قادمين من العاصمة الفرنسية ، بموجب اتفاقية كانت قد عقدت بين سفارة الدولة العثمانية في باريس والسلطات الفرنسية ، لانشاء سدة الهندية وتطوير نهري دجلة والفرات.

وبعد ان اكدت وصولهما مرة ثانية ذكرت انهما قد وصلا بغداد ليقوما باجراء الكشف الموقعي المناسب واللازم لرفع وازالة الموانع التي تعرقل سير البواخر العاملة في نهري دجلة والفرات ، ولينظروا ايضا فيما يجب تنفيذه بخصوص الاعمال والانشاءات الازمة لسدة الهندية . وقد كان وصول كل من شوندورفر ووران الى بغداد في يوم الثلاثاء الموافق لليوم الاول من تشرين الاول لسنة ١٨٨٩. وتوجها بعد وصولهما بعدة ايام الى الهندية والحلة ، وبعد عودتهما قدما تقريرا مفصلاً وارفقاه بخريطة لسدة الهندية الى الولاية ، وبدورها ارسلته الى وزارة الاشغال في العاصمة العثمانية .

ونقلت لنا الزوراء التوصيات التي وضعها المستر غالان المشاور المختص في وزارة الاشغال العثمانية من قبل ، والمقترحات الجديدة التي وضعها شوندوفر والتي اكدت ضرورة اجراء بعض التعديلات . واتخاذ قرار بالتريث لحين ورود التعليمات الخاصة بانشاء سدة الهندية من وزارة الإشغال . وبعدعودة شوندوفر ومعاونه الى بغداد توجها بتاريخ الثاني و العشرين في كانون الثاني عام ١٨٩٠ برّا لأجراء الكشف على نهر الفرات ولغاية مركز مسكنه النهري ، وذلك لمعاينة سير البواخر وكذلك موضع الحجارة المزمع استخراجها من هيت لسدة الهندية .

ووفقا لطريقة الزوراء في نشر الامور والقضايا الرسمية ،فقد نشرت التقرير الذي اعده شندوفر ومعاونه لوزارة الاشغال في العاصمة العثمانية فيما يتعلق بسدة الهندية ،ويعد التقرير وثيقة رسمية لكل الجوانب المتعلقة بسدة الهندية وما تحتاجه من اجراءات فنية ،مالية فضلا عن ماتتطلبهمن امور مادية كالاحجار والطابوق وضرورة نقلها بصورة كافية من هيت او من خرائب بابل لأنشاء السدة.

زوراء

وبعد ان استخلصت موافقة وزارة الاشغال العثمانية على مشروع سدة الهندية ، فقد بوشر بالعمل في الثاني عشر من تموز ١٨٩٠ م وفي الوقت ذاته قرر مجلس ادارة الولاية تشكيل لجنة مؤقتة مؤلفة من رئيس وثلاث اعضاء للاشراف على الانشاءات والعمليات التي ستنفذ في سدة الهندية . وايضا لتنظيم سجل خاص يبين فيه مقدار الاجور الازمة وتصديقها بموجب سندات صادرة عن مستحقيها لغرض ارسالها الى مجلس ادارة لواء الحلة لتسديد مستحقيها. وقد عين لرئاسة المجلس يحيى نزهت متصرف الحلة وثلاثة اعضاء هم عبد الغني افندي البغدادي والشيخ تقي الكربلائي واحمد افندي جبران الحلي.

هذا وكان قد دعي رئيس المجلس يحيى نزهت ومحاسب المجلس حسين افندي الى بغداد لبحث مايجب بحثه مع مجلس ادارة الولاية . بموجب الاستطلاعات الرسمية التي اجرتها هيئة التحرير في الزوراء تبين ان مجموع المبالغ المصروفة من ابتداء تشكيل لجنة سدة الهندية ولغاية تشرين الثاني من العام ١٨٨٩م قد بلغت ١،٧٣٣،٩٩٢ قرشاً و٣٣بارة ، وبموجب سندات صرف صادرة عن صناديق مال الولاية وملحقاتها وصندوق الاراضي السنية واصحاب الاعمال. غير ان اوجه صرف تلك المبالغ على وجه المفردات كان لا مجهولا لدى محاسبة الولاية . ومن الضروري بل الواجب ان تكون الولاية مطلعة على مفردات المصروفات .

وبناء على ذلك فقد اصدرت الولاية تعليمات خاصة تقضي بأن المبالغ التي يلزم صرفها لاتصرف جميعها سندات موظف معين بل تصرف وفق القاعدة المعمول بها. آنذاك. وهي ان تعطى وفق السندات التي يقدمها ارباب الاستحقاق الذين يقبضونها مباشرة، ثم تصدق المستندات من قبل لجنة السد عن مصروفات كل شهر .

كما ارسلت تبليغات رسمية مفصلة عن الولاية الى لجنة السد تلزمها بتنظيم سجلات خاصة تدون فيها المصروفات مصدقة وترسل في نهاية كل اسبوع مرفق بها السندات الازمة مصدقة وكافة التفاصيل الاخرى . كما ذكرت الزوراء ايضا ان سجلات محاسبة الولاية اشتملت على المبالغ بصورة مجملة ، من قبل صناديق الولاية

لغاية تشرين الثاني من العام ١٨٨٩ البالغة ١٣٥٠٨٨ قرشاً والمدفوعة من قبل اصحاب الاملاك البالغة ١٨٢٤٤٤ قرشاً و ٢٠ بارة .

عرضت الزوراء في اماكن عديدة الاهتمام الكبير الذي بذله والى الحلة يحيى نزهت لانشاء سدة الهندية واقامته المستمرة في موقع المشروع بنفسه للاشراف على اعمال البناء واحضار المواد الازمة ، وتوفير الايدي العاملة حيث بلغ عددها في المشروع مقدار ثلاثة الاف عامل ، الذين عملوا. كما اكدت الزوراء. بأتم جهد واجتهاد ، هذا مع العلم انه صادف حضور اكثر من هذا العدد بكثير. ففي برقية رفعها المهندس موسيو شوندوفر ونقلتها الزوراء جاء فيها:

"لقد بلغ حشدنا اليوم خمسة الاف وخمسمائة . وركز نصف الاوتاد

والسفن التي تاتي من هيت ومقدارها خمسين سفينة. اما

الاجر الذي ينقل على الابل من بابل فقد اجتمع عنده مايكفي ثلاثة

الاف وخمسمائة متر مكعب ، وان عملياتنا بظل حضرتكم قد صارت

تجري على وجه المطلوب".

وبعد المباشرة بالاعمال وانجازها ذكرت الزوراء ان مياه نهر الفرات المارة بنهر الحلة التي كان قد اجرى افتتاحه وصل الى السماوة في الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٨٩٠. وبما ان تشعب منه جداول كثيرة لارواء جانبيه فذلك كان قبل جفافه يقطع المسافة ما بين الحلة والسماوة التي تصل الى ٢٠٠ كيلومتر بظرف ٤٠ ساعة. وبعد ان تمت عمليات سدة الهندية ورجوع الفرات الى مجراه القديم بواسطة نهر الحلة ، فقد قطع المسافة المذكورة بظرف ٢٣ ساعة على الرغم من تجاوزه للحفر العميقة والاهوار الواسعة الواقعة في مجراه القديم .

اما نهر الهندية الذي قسم الفرات الى شعبتين كبيرتين فأنه يختلط مع ماء المجرى القديم الذي يمر من من الحلة ويمتزجان بالقرب من السماوة ، ويصبان في شط العرب حين وصولهما الى القرنة .

وبهذا كما تقول الزوراء. "فقد احييت واعمرت الاراضي الواسعة التي كانت في جانبي هذه المسافة الواسعة التي تبلغ نيفا ومائتين كيلومتر بدل خرابها ، فأنها سوف تعود لها اسباب الثروة والسعادة التي تعيد معموريتها وتزين بالمزارع والاشجار تربتها" . وكل ذلك بفضل انشاء سدة الهندية ، غير ان عمرها لم يدم طويلاً اذ سرعان ما انهارت فتم اعادة بنائها في مراحل تالية.

الحاج هاشم الرجب وحل رموز الموسيقى

سالم الالوسي
مؤرخ واثاري

في اواسط تشرين الاول من عام ١٩٦٦ اتصل بي الدكتور محمد ناصر الحاني خاتفيا ،وكان يشغل منصب وكيل وزارة الخارجية ، ونقل الى خبرا مهما ، ذلك ان الحاج هاشم محمد الرجب يدعي التوصل الى فك رموز المصطلحات الموسيقية الواردة في كتاب (الاغاني) لبي فرج الاصفهاني ، فان صح هذا الادعاء فسيكون السبق للعراق في هذا الميدان الفني الذي عجز عنه العشرات من اساطين الموسيقيين من العرب والمسلمين والاجانب ، ويمكن تسجيل هذا السبق الفني للعراقيين وسيكون فتحا عظيما على المستوى العالمي ويمكن عقد مؤتمر دولي لذلك . وطلب مني الدكتور الحاني الحضور الى وزارة الخارجية للمداولة في الموضوع وامكانية استضافة الحاج هاشم الرجب في البرنامج الذي كنت اعده من تلفزيون بغداد بعنوان (الندوة الثقافية) .

اخبرني الدكتور الحاني عند وصولي الى وزارة الخارجية في اليوم التالي ولقائي به ، انه اتصل بالرجب الذي اكد وبثقة عالية توصله الى حل الرموز والمصطلحات ويمكن الوثوق من ذلك بالقاء محاضرة في أي مكان ويشفعها بامثلة تطبيقية ، وبناء عليه وافقتُ على استضافة الحاج هاشم الرجب . وتعزيزا لهذا الموضوع الفني الخطير رأيت من المناسب ان استضيف احد الاساتذة من المتخصصين بالدراسات الموسيقية فوقع الاختيار على الاستاذ الدكتور طارق حسون فريد الذي اكمل دراسته العالية في جامعة كورمنسكي ، فرع العلوم والتربية الموسيقية ، وكانت اطروحته (العود ، الالة الموسيقية العربية) .

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩٦٦ تم اللقاء في استوديو التلفزيون ، وفي اللحظة الاولى اعترض الاستاذ هاشم واحتج قائلا : كان الاتفاق ان اتولى عرض الموضوع وشرحه وحدي ، ولا اوافق على مشاركة أي واحد ، سواء الدكتور طارق او غيره ، وسوف اغادر استوديو اذا شارك الاستاذ طارق . ولانقاذ الموقف طلبت ورجوت الحاج هاشم الهدوء والصبر ، ليطمئن بان حضور الاستاذ طارق لاصلة له بموضوع حل رموز كتاب الاغاني ، وانما الاجابة عن اسئلة تتعلق بالعود العربية وهو موضوع اطروحته ! فهدات العاصفة وعندها جلسنا نحن الثلاثة استعدادا لبدء الندوة الثقافية ، وكنت اول المتحدثين وكمقدم للبرنامج الثقافي ، قلت : من يراجع المصادر الباحثة عن الاستشراق والمستشرقين ، يخرج بنتيجة ان هؤلاء لم يتركوا بابا من ابواب وعناصر الحضارة العربية الاسلامية الا وطرقوه واشبعوه بحثا ودراسة ونشرا الا ما يتصل بفنون الموسيقى ، فقد كان حظهم فيها ضئيلا ، ولم يتصد لهذا الموضوع الصعب الا قلة قليلة ، وقد وجد هؤلاء صعوبات جمة وكثيرة ، منها :

١ ــ قلة الوثائق والمخطوطات الباحثة في الموضوع والمدونة بالعربية واللغات الشرقية الاخرى .

٢ ــ ان اغلب المستشرقين الذين عكفوا على دراسة الموسيقى الشرقية ومنها العربية كان من المؤرخين او من ذوي الاختصاص بموضوعات اخرى كالرياضيات وغيرها من العلوم .

٣ ــ صعوبة فهم واستيعاب الكثير من المصطلحات الموسيقية وتعدد مسمياتها في اللغات المدونة بها .

ونتوجه بالسؤال الى الدكتور طارق حسون فريد ليزود المشاهدين عن الامور الاتية :

أ ـ نبذة مختصرة عن تاريخ العود العربية .

ب ــ متى تكامل العود الوارد ذكره في كتاب الاغاني ؟

ج ــ هل حدثت تطورات في صناعة العود ، وعن طريقة نصبه ؟

وقد اجاب الدكتور طارق على هذه الاسئلة بكل كفاية واقتدار ، وختم كلامه بقوله : كنت اتمنى ان اعزز كلامي بالعزف على آلة العود لتوضيح بعض المشكلات العارضة في الحديث.

ثم جاء دور الضيف الاستاذ الحاج هاشم محمد الرجب الذي طلب منحه وقتا كافيا لحديثه المتشعب من اجل الوصول الى الغاية المنشودة ، فكان له ما اراد فمنح مدة ٤٥ دقيقة . ولم اعرف المشاهدين بالفنان الكبير الحاج هاشم الرجب فهو فنان استاذ معروف والمعروف لا يعرف .

وتمهيدا لهذا الموضوع الخطير وهو القول بالوصول الى حل طلاسم ورموز المصطلحات والعبارات الموسيقية الواردة في كتاب الاغاني للاصفهاني ، قلت : ان موضوع الموسيقى الشرقية عامة والعربية خاصة شغل العديد من المستشرقين ومن مختلف الجنسيات لدراستها والتوصل الى حل هذه المعضلات في كتب الموسيقى عامة وكتاب الاغاني خاصة ، وعقدوا لذلك الندوات والحلقات الدراسية والمناقشات والمحاورات نذكر منهم :

زارلينو الايطالي (القرن ١٦ الميلادي) ، هربان (القرن ١٨ الميلادي) ، اندريه الاسباني ، كاتلين شليزنكر ، بوركستال النمساوي ، واخيرا هنري فارمر . prof henryfarmer رئيس الفرقة الموسيقية في البلاط البريطاني . هؤلاء حاولوا على مدى قرون ولم يتوصلوا الى نتائج مرضية ومقبولة من قبل دوائر الاستشراق وعمالقة فنون الموسيقى .

والان نستمع الى الحاج هاشم الرجب ليحدثنا عما توصل اليه من جهود ، نرجو ان تكون مثمرة . وقد نصب الاستاذ هاشم الرجب سبورة وامسك بعصا لشرح المصطلحات الواردة في كتاب الاغاني ، وهي : خمسة مصطلحات تتفق مع الاوتار الخمسة التي تتالف منها الة العود . وبعد شروح طويلة حصل لدينا وخاصة الدتور طارق حسون فريد ان ايراد هذه المصطلحات وتطبيقها عمليا على العود ومقارنتها بالمقامات العراقية المعروفة : الرست والصبا والحجاز والنوى وغيرها ، امر غاية في الصعوبة ، ولم يتوفق الاستاذ الرجب بالاجابة على التساؤلات واهمها التطبيقات العملية من اجل ان نقول : ان مصطلح (مطلق من مجرى الوسطى يقابل مقام الرست) ، وان مصطلح (مطلق من مجرى البنصر يقابل النوى) ومصطلح (سبابة في مجرى الخنصر يقابل مقام الحجاز) وهكذا .

انتهت الندوة على هذه الصورة لعدم وجود طريقة قديمة للتدوين الموسيقي أي التنويط ، فالمصطلحات جاءتلقة . وهنا جاءت النتيجة مخالفة للقاعدة الفقهية (المطلق يجري على اطلاقه) . ورحم الله الحاج هاشم محمد الرجب الذي حاول محاولة تاريخية كسب من ورائها الشكر والتقدير .

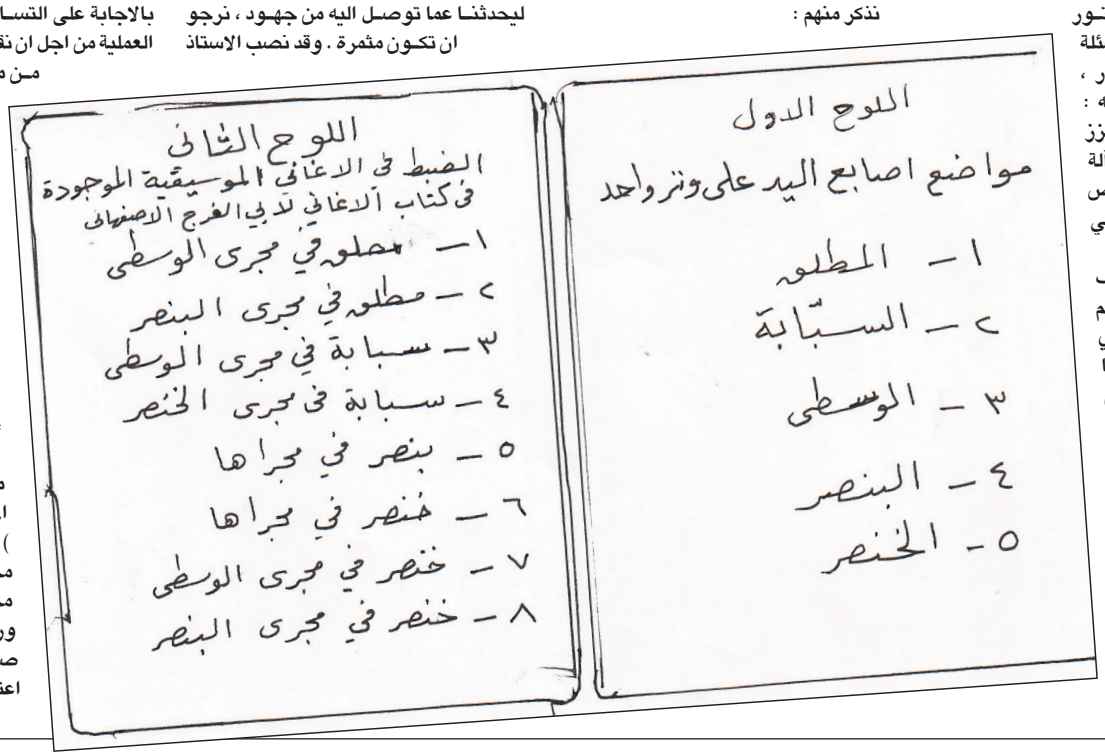

صورة اللوحين الذين اعتمدهما الرجب

الشيخ الشبيبي.. يطلب من الاب الكرملي مساعدته في تعلم الفرنسية

عبد الله الشيخ علي البهادلي

يقول الاديب المرحوم عبد الرزاق الهلالي كان المرحوم مزاحم الامين الباجه جي من السياسيين العراقيين المخضرمين وقد تعرفت عليه عندما اصبح رئيسا للوزارة في سنة ١٩٤٩ عندما كنت اعمل في دائرة التشريفات الملكية والذي اذكره عنه انه لاقني في احد الايام في شارع الرشيد بعد ان اصدرت كتابي (الشاعر الثائر الشيخ محمد باقر الشبيبي) سنة ١٩٦٥ وبعد ان سلمت عليه قال لي الباجه جي: استاذ الهلالي اهنيك على كتابك عن الشبيبي فقد كان صديقي، وهناك حقيقة اود ان تعرفها قلت ماهي؟ قال الباجه جي ان الفضل في نظم قصيدته عن باريس يرجع لي حيث دعوته ذات يوم الى السينما فلماذا ذهبنا ورأى ما عرض عن مدينة باريس في السينما اعجب بها ايما اعجاب وقال لي اني سوف انظم قصيدة بها.. وبالفعل نظم قصيدة بعد ايام مطلعها (لأن قطنت اهلي العراق فان لي بباريس اصحاب اعز من الاهل) فلما سمعت منه ذلك قلت له: لو اعدت طبع كتابي ثانية فلسوف اذكر هذه الحقيقة هذا ماقاله لي المرحوم الباجه جي عن الشبيبي وباريس وقد بدا لي وانا ابحث في مراسلات الكرملي مع بعض ادباء العراق.

ان الشيخ محمد باقر الشبيبي (رحمه الله) كان قد سعى الى تعلم اللغة الفرنسية وهو في النجف الاشرف ورغب في معاونة الاب انستاس الكرملي من اجل ذلك وانتقل للقارئ صورة رسالته التي بعث بها الى الكرملي بهذا الخصوص وهي (سيدي الفاضل اخذت بطاقتكم الكريمة ومنها علمت صفاء مودتكم وصدق لهجتكم وقد شكرتكم لحسن ظنكم بمقالتي الاخيرة وسوف اشرع ان شاء الله في اكمال (البسة العوام في العراق) مبوبة ولولا اني مشغول في هذا العهد بتعلم حبيبتي (اللغة الفرنسية) لاتممت البحث سيدي لا ادري ما صنع الدهر بمقالتي الاخيرة عن فرنسا! اتوقع من سيدي اذا لم ينشرها في (لغة العرب) ان يعيدها الي مع الشكر الجزيل وسائني كثيرا عدم وجود كتاب (ميثور براتبك) عندكم فانه لايوجد بطرفنا ابدا عسى ان يكلف سيدي احد اصحابه للوقوف عليه ويكون عوضه كتاب قراءة ممتع جدا لاصحح به قراءتي.

كتاب (كرامير) الاول من تأليف (هنري لاريف) طبع باريس واذا كان لديكم الثاني والثالث منه فلا بأس ولكن حاجتي الفعلية الى الاول والى كتاب قراءة يا حبذا لو يسمح لي الاب بوعد صادق لاجله اغادر وطني (النجف الاشرف) لمدة شهرين لادرس اللغة الفرنسية فيكون له المنة علي ابد الدهر وان النجف الاشرف وان اوجد فيها من يعلمها الا ان بعض النجفيين ينكر علينا هذا العمل والحاصل ان في سبيل تعلمها في النجف الاشرف عقبات تصد الطالب عنها! ولهذا آمل ان اكون في بغداد وبضعة شهر سأفرغ فيها نفسي وامحضها لدراستها واطال الله حياتكم.

التوقيع محمد باقر الشبيبي

وقد تبين لي بما شاهدت من رسائله الى الكرملي فيما بعد انه قد تعلم اللغة الفرنسية فعلا ولكنه مع هذا لم يسافر الى باريس كما كان يتمنى!!.

محمد رضا الشبيبي

انستاس الكرملي

ابن الدهان الموصلي..

أول وشّاح عراقي تغني له كوكب الشرق السيدة أم كلثوم

مؤيد الزويني

ولدَ ابن الدهان الموصلي في مدينة الموصل شمالي العراق (٥٢٠-٥٨١ هجرية) (١١٢٦-١١٨٥ ميلادية).. وهو الشيخ الجليل والفقيه والامام والعالم عبد الله بن اسعد بن علي بن عيسى بن علي ابو فرج مهذب الدين الموصلي الشافعي.

ويعد هذا الشيخ الجليل (أول وَشّاح عراقي).. فضلاً عن كونه شاعراً مرموقاً.. هجر مدينة الموصل بعد ان ضاقت به السُبل وضاق به الحال.. فتوجه الى (أرض الكنانة) مصر ثم قفل راجعاً بعد ذلك الى مدينة حمص السورية حتى وصلها صلاح الدين الايوبي وخيّم بأرضها.. وقد مدحه الشاعر ابن الدهان الموصلي بقصيدته التي غنتها فيما بعد كوكب الشرق السيدة أم كلثوم.. وهي من مقام البيات ومسجلة على اسطوانة قديمة عام ١٩٢٦.. يقول في قصيدته:

قل للبخيلة باسلام تورعاً
كيف استبحت دمي ولم تتورعي
وزعمت ان تصلي بعام مقبل
هيهات ان ابقى الى ان ترجعي
أبديعة الحسن التي في وجهها
دون الوجوه عناية للمبدع
ما كان ضرك لو غمزتِ بحاجب
يوم التفرق أو أشرتِ باصبعِ
وتيقني اني بحبك مغرم
ثم اصنعي ما شئت بي ان تصنعي

ويؤكد الكثير من النقاد والمتابعين والباحثين ان هذه القصيدة قيلت في مدح صلاح الدين الايوبي.. وهو احد ملوك الاسلام.. ولد في تكريت سنة ٥٣٢ هجرية وتوفي بدمشق سنة ٥٨٩ هجرية ودفن فيها.

وهناك شاعر عراقي آخر غنّت له السيدة أم كلثوم قصيدة (موشح) (يا بعيد الدار) وهي من مقام هزام.. من ألحان الشيخ زكريا احمد.

وهو (العباس بن الاحنف بن الأسود) المتوفى عام ١٩٢ هجرية وله ديوان اكثره في الغزل.. عاش هذا الشاعر العراقي في عهد العباسيين ومات ودفن في بغداد.

وغنت ام كلثوم ايضاً قصيدة (أعيرُ الدموعَ) للشاعر الكبير الشريف الرضي المولود في بغداد.. وهو من اشراف العلويين..

ولد في ٣٥٩ هجرية وتوفي عام ٤٠٦ هجرية اي ما يعادل (٩٧٠-١٠١٥ ميلادية).. وكان ابوه نقيباً للعلويين وشاعراً بارعاً..

كما كان عالماً بارعاً.. ويرجع نسبه الى الامام الكاظم (عليه السلام).

قال هذه القصيدة في الحنين والاشتياق وهي من (الحجازيات)..

توفي الشريف الرضي في بغداد ودفن فيها.

(أعيرُ الدموعَ)من ابياتها:

ايها الرائح المجدُّ تحمَّل
حاجةً للمتيم المشتاق
إقرَ عني السلام احبابَ قلبي
فبلاغ السلام بعض التلاقي
واذا مررت بالدار فأشهد
ان قلبي يفيض بالأشواق
واذا ما سُئلت عني فقل:
نضوَ هوىً ما أظنهُ اليوم باقِ
وأبك عني فطالما كنت من
قبلِ أعير الدموعَ للعشاق

والجدير بالذكر ان السَيدة ام كلثوم لم تغنِ للشعراء العراقيين المعاصرين حيث اكتفت بالغناء ولا نعرف السر في هذا حتى الآن؟!

عادات وتقاليد المجتمع الكربلائي

سلمان هادي الطعمة
اديب وباحث

كربلاء المدينة التاريخية المقدسة التي تضم مرقدي الامام الشهيد الحسين بن علي وأخيه العباس (عليهما السلام) ، ويؤمها آلاف مؤلفة من المسلمين وغير المسلمين في مشارق الارض ومغاربها لزيارة العتبات المقدسة .

وكربلاء مدينة قديمة لها ماض مشرف حافل بالأعمال الخيرة والطيبة الموروثة . والمجتمع الكربلائي الذي عرف بحرصه على حفظ تقاليده وعاداته التي توارثها السلف عن الخلف ، ليعتز في الحفاظ عليها ، لانها أساس العلاقات الاجتماعية ، حيث هناك كثير من هذه العادات والتقاليد تكاد تكون غير معروفة لدى معظم ابناء الوطن من غير أهالي كربلاء .

ونحن هنا في هذا البحث نود أن نلقي ضوءاً كشافاً على جانب من هذه العادات:

1 . عيد الدخول (تحويلة السنة)

مناسبة يقوم الناس فيها بتبادل الزيارات فيما بينهم ويزورون مراقد الاولياء الصالحين والخروج الى البساتين والتنزه وهن يحملن الابسطة والشاي والسماورات ابتداء من صباح اليوم الباكر حتى اليوم الثالث عشر .

وقبل ان تبتدأ السنة الجديدة وتنتهي السنة السالفة ، وخلال تلك الساعات يقمن بتلاوة الادعية لفتح أبواب الرزق وتحقيق الآمال متضرعين متبركين أن يحفظهن . ومن الطريف ان هناك اعتقادا يتداولنه هو ان البيضة سرعان ما تتحرك من تلقاء نفسها وتتخذ لها من المرآة مستقراً ويعرف هذا العيد عندهم بالنوروز.

أما العرب أهالي كربلاء الاقحاح ، فيطبخون في ذلك اليوم الزردة والحليب وليضعون معها في الصينية السمسم والسكر والكليجة والسمك والدجاج والبيض ، ويزينون المائدة بالشموع على عدد أفراد العائلة . ويعتقد هؤلاء ان السنة القابلة ستدور على شيء معين ، فمثلا يقولون ان السنة تدور على الكلب فتجدهم يتشائمون ويعتقدون ان هذه السنة ستكون وبالا عليهم ، حيث يتقاتل الاخوة أو ستدور السنة على خنزير ، حيث ينعون الشفقة والرحمة وهكذا .. ويسمى هذا التحول بـ (دورة السنة) وتزين النسوة باطن اكفهن بالحناء ويرتدين الحلي المزركشة ابتهاجاً بهذا اليوم الجديد مشاركة لغيرهن من أهالي المدينة .

2 . صوم زكريا

في أول يوم من شهر شعبان كل عام يصوم الرجال والنساء يوماً واحداً يسمى بـ (صوم زكريا) لاجل تطمين رغبات واحتياجات يعمل الفرد في تحقيقها . فالنساء الحوامل في الغالب يرغبن أن ينجبن أولاداً ذكوراً ، فيصمن هذا اليوم نذرا وهن يتقربن الى الله في تحقيق الاماني والغايات ، ثم يفطرن على

ماء جلب من بئر وقطعة من خبز شعير ويخلطن اللبن بالدبس ، ويعلمن الدوملة والخضروات ، وتجلب هذه المواد الى صحن العباس (عليه السلام) لتوضع على (سفرة) ويوقدن الشموع ويؤدين الصلاة ركعتين ثم يفطرن ، وبعدها تعود النسوة الى منازلهن.

3 . الدباغية:

في آخر يوم أربعاء من شهر صفر يذهب الرجال والنساء الى الدباغية، حيث يحوي المكان أحواضاً لغسل جلود الغنم والابقار والجاموس والجمال .

ومن الطبيعي ان يكون الماء المستعمل ذا رائحة نتنة . ومن المعتاد ان يعبر هؤلاء سبعة أحواض ، ويملأون دواليكهم أو سطولهم أو قناديلهم أو صراحياتهم أو صفائحهم من هذا الماء النتن فيجلبونه الى دورهم . ويعتقد هؤلاء أن كل من سحر لهم ، فان هذا الماء الذي يسكبونه في زوايا الدار يبطل أثر السحر . وتخلط المرأة المتزوجة من الماء المجلوب مع الماء الصافي وتسكبه على الفتاة التي تحلم بالزواج

ومما هو طريف ان عدد الرجال والنساء الذين يترددون على الدباغية يبلغ قرابة الاربعة آلاف ، حيث يتوافدون من المحافظات الجنوبية ، وغالباً ما تكون تلك الزيارة يوم الاربعاء من كل أسبوع .

4 . المشية:

تذهب بعض النسوة الى دار الفتاة فيشاهدن الفتاة ويفاوضن والدتها ، ثم تعرض والدتها الامر على والدها ، فان وافق فيحدد اليوم الموعود . فينبه أهل الفتى عائلة الفتاة استعداداً لمجيئهم .فيذهبون ويصطحبون من اصدقاء كلا الطرفين ويحضرون في دار الفتاة ، ويتحدث الشخص المرموق فيهم فيقول :

(ابختنه) أي اعطنا عهداً بأنك لا ترد طلبنا . فاذا رد عليهم ولي أمر الفتاة بقوله: (مبخوتين) فانهم ، يشربون الشاي ويتحدثون عن المهر وما يمت للزواج بصلة. والمشية تأتي لعدد من المناسبات كالقتل والصلح والزفاف وغير ذلك .

5 . الخطبة:

يذهب جمع من قريبات الفتى الى دار الفتاة ، ويقدمن الخاتم او السوار وبعض الهدايا الى الفتاة ، ويتم الاتفاق بحضور رجل الدين الذي يقوم بمهمة عقد القران في وسط من الاهازيج والزغاريد .

6 . الجلوة في الاعراس:

تحضر (الملة) المعروفة في الحي الى دار الزوج ليلة الزفاف ، وعندما يقدم الزوج تضع يده بيد الزوجة وتضيء

الملّة : لفظة تطلق في كربلاء على المرأة فقط وهي التي تقوم بتعليم الاطفال . أما الرجال فيسمى واحدهم بالشيخ .

الشمعة الكبيرة التي اعدتها أمامهما فيمنحها الزوج نقوداً ، وهي تقرأ بعض الادعية . كما ان القابلة التي تسكن الحي والتي اعتادت توليد النساء ، تحضر وتغسل ايدي الزوجين بابريق من ماء الورد كانت قد اعدته منذ حين لاجل هذه المهمة فتمنح لها الهدايا من الزوجين تكريما لها .

7 . الشوباش:

عندما يتزوج الرجل تأتي قارعات الطبول من نساء العبيد في اليوم التالي فيضربن بدفوفهن وينشدن بعض الاغاني لتهنئة الزوجين بهذه المناسبة السارة ، وتفرش عباءة في ساحة الدار ويهرع الناس من اصدقاء وجيران وأقارب وكل من يشعر أن للزوج أو الزوجة حقاً عليه فيرمي بمبلغ مناسب في العباءة هدية منه . بعد ذلك يجمعن المبالغ المتوفرة فيتقاسمنها بينهن . كما ان أهل المحتفى بزواجه يقومون باكرامهن مالا وملابس وسكرا ، ثم يبرحن الدار وهن داعيات للزوج الخير والبركة والبنوة الصالحة .

وفي خارج المدينة تختلف الامور ، حيث الحياة القبلية والعشائرية ، فيأتي عدد من الاشخاص ممن لهم صلة بالعائلة ويطلقون العيارات النارية مشاركة لهذه الفرحة ، فيرد عليهم أهل الدار باطلاقات أخرى وهم يعلنون عن فرحتهم بزيارتهم ، ويستضيفونهم . ثم يفرش صاحب الدار عباءته في الساحة المعدة لهم ، ويعد لذلك يشماغاً لمن يقف بالقرب من العباءة وينادي بالشوباش ، ويبتعد صاحب الدار مسافة قصيرة ، بحيث يسمع المنادي وهو يردد «شوباش .. حجي (...) انعم الله عليك .. الله يبيض وجهك» ثم يحصي بذلك صاحب الدعوة المبالغ المتجمعة

عن طريق عدد خرزات المسبحة ، لان ما يدفعه كل شخص يعادل ما يدفعه الآخر ، حتى لا يضيع عليه الحساب ، واذا تعذر ان يكون هناك من المبلغ المحدد بينهم ، يأتي فيهمس باذن العريس معتذراً ان ذات اليد مقصرة معه في دفع المبلغ الكلي المتفق عليه آنياً ، فيقبل صاحب الدعوة عذره وهو يعطيه فرصة أخرى لسد ما تبقى عليه من دين ادبي .

8 . صوم اليتيمة:

تروي الاساطير بأن هذه التسمية تعود الى ان هناك فتاة يتيمة الام ، لها أب وزوجة أب ، تنال من زوجة أبيها سوء العذاب ... ذات يوم شكت همها الى الجيران ، وقيل لها «ان هناك صوماً لليتيمات ، ويمكنك صوم ذلك اليوم واتجهي الى بيوت ثلاث في كل منها فتاة اسمها فاطمة وخذي من الاولى سكراً ومن الثانية طحيناً ومن الثالثة دهناً لعمل العصيدة وصومي ذلك النهار ، واستعدي للفطور» . امتثلت البنت لقول جارتها وعملت العصيدة وفطرت بها ، بعد ان صامت ذلك النهار لطلب مرادها . كل ذلك جرى دون علم أهلها . وتقول الاساطير ان هذه البنت قد نالت مرادها ، وتزوجت من ابن السلطان . وفي العام الثاني من زواجها ، وبعد ان أدت

الواجب الملقى على عاتقها بصومها دون علم أهل الزوج ، وخلال فطورها ، دخل عليها زوجها ابن السلطان الى المطبخ ونهرها ومن ثم رفس الطاوة برجله ، وقال لها : «هل انت مازلت فقيرة كما كنت في دار أهلك ؟» وكان ملك الدولة المجاورة قد أرسل اليه يرجوه للمقابلة ، فنفذ ابن السلطان الامر ، وقبل ان يودع زوجته قال لها : استعدي وهيأي لي المتاع ، فوضعت له في الخُرج ثلاث بطيخات وبعدها سافر ، وحال وصوله الى الملك للسلام عليه ، وجد الخرج يقطر دماً ، وعندما فتح له الخرج ، وجد فيه ثلاثة رؤوس بشرية وقال له الملك : نحن رجوناك لمهمة ، فكيف تتسبب بقتل ثلاثة أشخاص ؟ وحجزوه هناك فترة من الزمن تقارب السنة وارسل خبراً الى زوجته ملتمساً ان تقوم بالصوم وتأدية ما عليها من الواجبات الدينية التي كانت تعملها في دار أهلها حتى يفرج الله عنه الكرب ويعود اليها سالماً . وفي ذلك اليوم الذي صامت فيه من السنة التالية كانت محاكمة زوجها ، وقد أدت ما عليها وأكلت العصيدة .

وفي مجلس الملك سئل ابن السلطان عن سبب قتله لهؤلاء الثلاثة ، أجاب بالنفي واوتي بالخُرج ، وعندما فتحه الملك ذهل حين وجد ان هذه الرؤوس قد انقلبت الى ثلاث بطيخات .

ومن خلال تلك الاسطورة تصوم الفتيات عندنا آخر يوم ثلاثاء شهر رجب من كل عام لاجل الحصول على المراد .

9 . ليلة المحية:

اعتاد الناس التهيؤ والاستعداد المسبق بالابتهاج بهذه الليلة المباركة فهي ليلة ميلاد المهدي المنتظر (عليه السلام) . وتصادف النصف من شعبان حيث تكون الليلة بهيجة ومفرحة ، يتوافد الناس الى كربلاء زرافات ووحدانا لزيارة قبر الشهيد الحسين (عليه السلام) . كما يسهر الناس حتى الصباح وهم في أبهى حلة من الفرح والسعادة ، اذ تجدهم يسهرون في أماكن يحددونها ، وتقوم النسوة خلال تلك الليلة بتهيئة الطعام الذي يتكون من الدولمة والخضروات والحلاوة واللبن والكباب والدبس ، كل هذا يوضع في سفرة شعبية تحطيها الشموع الموقدة ،

وبعد ذلك تأكل العائلة تلك الاطعمة المتنوعة ، وما ان يفرغوا من غسل الايدي حتى تهيأ دلال القهوة والدارسين . وبعدها يصلي افراد العائلة عند انبثاق الفجر .

ولا ننسى ان الاطفال والصبيان يستقبلون تلك الليلة مبكرين بهزجة شعبية هي (الماجينة) وهم يتنقلون من بيت الى بيت في الحي الذي يقطنونه .

10 . أربع سبوتة رجب :

انطلقت عادة جديدة في أواخر الستينات ، اذ تقوم النسوة بالصيام ٤ أيام سبت من شهر رجب تبركاً وطلباً لنذر او مراد ، حيث يخرجن قبيل الفجر صائمات فيقصدن زيارة العباس (عليه السلام) ومن ثم يزرن الحسين (عليه السلام) وهن لا يكلمن أحداً ، وعندما ينهين الزيارة والدعاء بطلب المراد يعدن الى بيوتهن للافطار .

11 . زيارة احمد بن هاشم:

اعتاد أهالي كربلاء ومجاوروها زيارة مرقد السيد أحمد ابو هاشم(١) المعروف عند العوام باحمد بن هاشم وذلك في موسم جني التمور في شهر تشرين الاول من كل عام(٢) ، وذلك وفق

هو السيد أحمد بن ابي الفائز محمد من ذرية السيد ابراهيم المجاب ابن محمد العابد بن الامام موسى الكاظم (عليه السلام) . وهو الناظر لرأس العين المكنى بأبي ضراس والمدفون خارج شفاثة على ثلاثة مراحل غربي كربلاء ، وقبره يزار وله كرامات كثيرة . انظر كتاب (بغية النبلاء في تاريخ كربلاء) للسيد عبد الحسين الكليدار آل طعمة ص ١٣٢ .

برنامج معين . فيجلبون الماء في صفائح وبراميل خاصة لعدم وجوده هناك ، كما يقوم الآخرون بجلب الحطب الذي يطبخون به الطعام ، كل ذلك لاجل التبرك وقضاء الحوائج . فتقدم النذور والقرابين وهي عبارة عن ذبائح لكل من في ذمته نذر وينحرونها هناك ، ويتجمهر الزوار في كل حارة بسيارات تحمل علماً أخضر اللون تعلقاً بأهل البيت ، ويمكثون هناك ثلاثة أيام .

12 . ليلة آخر صفر:

عندما ينتهي شهر صفر ، وهو من الشهور الحزينة في السنة الهجرية ، اعتاد الناس رمي الكوز من أعلى السطوح ، بعد ان يضعوا في كل واحدة منها قطعة صغيرة من الفحم وقليلا من الماء وذرات من الملح وعدداً قليلاً من النقود الصغيرة التي لا تتجاوز الخمسة فلوس . وتقوم النسوة برمي تلك الكوز في الطرقات دفعاً للشر والسوء ، وهن يردن : «فلوس الخير بجرّة صفر» ويتم هذا بعد رؤية هلال شهر ربيع مباشرة ، حيث يقوم الصبيان بايقاد النيران في الطرق والازقة ابتهاجاً وفرحاً بانبثاق فجر الربيع وهم ينشدون في مظاهرة شعبية : (راح صفر جانه ربيع .. يا محمد .. يا شفيع) . ولا يتوانى الرجال من اطلاق الرصاص مشاركة في هذه الفرحة . وتلك عادة توارثوها عن أسلافهم .

من كتاب (كربلاء في الذاكرة) بتصرف

من اين جاءت تسمية الجالغي البغدادي؟

مهدي حمودي الانصاري

الجالغي البَغدادي ، يرافق قراء المقام العراقي ، ويعتمد اصلاً على الغناء القديم ، و بمرافقة الالآت الموسيقية ، المؤلفة من الجوقة الموسيقية والمنشدين والالآت الموسيقية .

١- السنطور
٢- الدنبك
٣- الكمان
٤- الدف
٥- النقارة
٦- الجوزة

حين ظهور المقاهي وأنتشارها في بغداد ست البلاد ، كمقهى الشابندر ، وسبع وعلوان العيشة ، والمميز وعزاوي .. الخ . الخ..

وأخيراً تناهى للاسماع من الراديو والتلفاز ، قراء المقام العراقي وأهل الطرب والغناء .. وهم يرددون مع الجالغي ، رشيد القندرجي ، وجميل البغدادي ونجم الشيخلي واحمد الزيدان وعباس كبير الشيخلي وآخرون اما مطرب العراق الاول الاستاذ محمد القبانجي فلم يغن او يشارك في اية مقهى مع قراء المقام او وحده .. هذا ما قاله لكاتب هذه السطور .. رحمه الله .. ونستذكر المشاركين والمنشدين في الجالغي البغدادي الحاج هاشم محمد الرجب وحمودي الوردي وشعوبي ابراهيم وعبد الكريم العزاوي وعبد الرزاق الشبلي حيث شاهدناهم .. قبل اعوام من على الشاشة الصغيرة – التلفزيون وقراء المقام والمنشدون ، كانوا يرتدون عند ادائهم الغناء مع كورس الجالغي البغدادي الملابس البغدادية التقليدية القديمة (الدشداشة) والصاية و(الزخمة) والزبون ويعتمرون الفينة (الطربوش) (والجراوية) ويأخذون بالغناء والانشاد الشجي والطروب معاً . ويقول الاستاذ الشاعر الغنائي المؤرخ عبد الكريم العلاف : مؤلف الطرب عند العراب) وبغداد القديمة والموال البغدادي . (يتألف جالغي بغداد ، وهو الجوق الموسيقي البغدادي من فرقتين ، تحتوي على الكمان والسنطور والدف والدنبك والفرقة لاولى تشتغل ليلاً في مقهى مميز ، في رأس الجسر القديم وقوامهم كل من المرحوم احمد زيدان قارئاً للمقام ورئيساً للفرقة فضلاً عن عازفي الكمان والسنطور وضاربي الطبل والدنبك .. والفرقة الثانية تشتغل عصر كل يوم في مقهى سبع بالميدان وقوامها كل من المغني حسن الشكرجي مرة ، والسيد جميل البغدادي مرة اخرى في اداء المقام يرافقهما عازفون على الكمان والسنطور وضاربي الطبل و الدنبك والقانون احياناً .

ومن الاغاني التي كانت ترافق الجالغي البغدادي

أفراكهك بجاني جلما طلية باضلع
بيك اشترك دلالي يقلون حبي زعلان
ياكهوتك عزاوي بيهه المدلل سلمان
سلم علي من بعيد وحواجبه هلال العيد
ممنون كل شتريك سواها بيه سلمان
بيك اشترك دلالي يقولون حبي زعلان
ياكهوتك عزواي بيهه المدلل سهران
شفته بيعوني او صديت مثله ابد قط ما لكيت
ياكهوتك عزاوي بيهه المدلل سلمان
لاركض وراهم حافي وعبيتي اعل اجتافي
حبه من الاسمر كافي كله من دردك سلمان. .

عمو زكي

ابتدأت "قصخونا" وعشت "معداً" لبرامج الاطفال وانتهيت مديرا لدار حضانة

كمال لطيف سالم

يرتبط عمو زكي بطفولتنا كما يرتبط هو بتاريخه الطويل بين عمر بدأه في محلة القره غول وعالم عاشه مع الاطفال ليشد عبر خيط طفولته افكارا مملوءة بالهواجس الجميلة التي ترجمها عبر شخصيته المحبوبة عند اطفال شبوا وكونوا جيلا عريضا من الفنانيين.

وعندما يحدد عمو زكي سر اهتمامه بعالم الطفولة يعود الى النبع الذي شرب منه اول مرة، ففي محلة القره غول ولد عمو زكي سنة ١٩١٥ وكانت مدرسته الاولى عند الملا فاضل احد كتاتيب المحلة الذي مهد لدخوله مدرسة البدري التي تعتبر بالنسبة لذلك الوقت مدرسة متطورة بالقياس لاساليب التعليم انذاك.

القصخون

عندما نسأل عمو زكي عن سر ولعه بعالم الاطفال يقول بلهجته المحببة:

– ان جدي كان قاصا معروفاً وانا هنا لا اعني القصة المكتوبة وانما اقصد ان جدي كان قصخونا يقص الغرائب والعجائب على رواد مقهى الفضل، وفي هذه المقهى التي كانت بمثابة مسرح او تلفزيون او لنقل حتى سينما قدر لي ان أبحر مع تلك القصص والحكايات التي كانت تعج بالبطولات والخوارق، مما وسع هذا النمط من الحكايات مخيلتي ودفعني الى التفكير بتقليد جدي حتى اصبحت بين اقراني "قصخونا" صغيرا.

وفي عام ١٩٣٨ بدأت صلتي بالمذياع، ففي محلتنا كانت عائلة واحدة تمتلك مذياعاً وهذا ما كان يجعلنا نحيط بالمذياع على شكل جمهرة وبخاصة عندما كنا نسمع برنامج بابا صاقد من اذاعة ماركوني في القاهرة، وبالفعل فقد دفعني هذا البرنامج الى طموح جديد هو ان اقلد واصبح عمو زكي، وعند تأسيس الاذاعة التي كانت مرتبطة انذاك بوزارة المعارف قدمت طلباً لتقديم برنامج للاطفال وفي يوم المقابلة كنت امام فؤاد درويش مدير الاذاعة انذاك، فدهش لصغر سني وقصر قامتي فرفض طلبي معللا ذلك يأتي طفل صغير وان مهمة برامج الاطفال يجب ان يقوم بها اشخاص طوال القامة ولهم شوارب! فما كان مني الا ان اجبته عندما نظرت الى قامته القصيرة "ولكن انت قصير ومع ذلك فانت مدير الاذاعة" فادهشته عبارتي.

فقادني من يدي ووضعني امام الميكرفون. حيث كنت اقف على الكرسي لاقدم برنامجي.

هل سبق دخولك عالم الاطفال بدايات فنية متميزة؟

– نعم فلقد بدأت حياتي الفنية سنة ١٩٢٩ عندما كان عمري خمسة عشر عاما حيث شاركت باول عمل مسرحي "ام عمش" وتأليف المرحوم نديم الاطرقجي، وكنا نقدم عروضا على مسرح صغير اقمناه في محلة الفضوة اذ كنا نصنع الملابس التاريخية وحسب اجواء كل مسرحية بمساعدة عوائلنا.. ومن الوجوه التي عملت معي في تلك الفترة لطفي حمدي ابراهيم المدرس المرحوم زكي اللامي ولا ننسى الرسام فائق حسن الذي كان يساهم في عمل الديكور ورسم بعض اللوحات ومجموعتنا كانت تضم ايضا كاتب السيناريو يوسف صالح الامام الذي كان يقوم بتلقين الادوار للممثلين، واذكر بان المرحوم اسماعيل حقي كان يحفظ الدور لمجرد ترديده لمرة او مرتين اما كيف كنا نروج لمسرحياتنا فعن طريق النداء في الشوارع بواسطة فرقة موسيقية كما هو معمول في السينما.

وبعد ان قطعنا شوطا في التمثيل إنتقلت الى فرقة المعهد العلمي الذي كان يقوم بتعليم الاطفال القراءة والكتابة إضافة الى الموسيقى، وفي هذا المعهد انضممت الى الفرقة المسرحية حيث واصلنا تقديم العروض المسرحية المختلفة من تأليف يحيى ق ونديم الاطرقجي الذي كان من ابرز الوجوه التي اغنت المسرح العراقي فقد كان شاعرا وممثلا وكاتبا وقد تميز باخلاصه وتفانيه للمسرح. وقد مات هذا الرائد بالسل في يوم ممطر.

* عالم الطفولة:

يستطرد عمو زكي في سرد ذكرياته قائلاً:

– وفي سنة ١٩٣٨ تركت المسرح واتجهت الى برامج الاطفال وذلك بسبب ظهور السينما وقلة الاقبال على المسرح مما فرق شمل الممثلين فلجأ الكثيرين منهم الى الاعمال الخاصة وقد اصبحت علاقتي ببرامج الاطفال امتداداً لعملي الفني السابق.

× كيف كان ذلك؟

– لقد كنت اسأل نفسي دائماً هل ساحقق امنيتي التي كانت لا تزال مزروعة في نفسي وبالفعل وجدت في برنامج الاطفال متنفسي وصلتي الحميمة لتوجيه الطفل الوجه الصحيح الذي يجعله مرتبطاً بارضه وبأمته وتراثه الحضاري الاصيل فقدمت اول نص من فقرات برنامجي الوفاء عند العرب واستمريت في عملي لفترة طويلة فآمنت ان عملي هو رسالة يجب ايصاله بامانة حيث كنت انظر دائما الى طفولتي والمعاناة التي عشتها، وفي سنة ١٩٥٤ اتجهت ببرنامج الى التلفزيون عندما افتتح في معرض شركة باي وساهمت به حتى سنة ١٩٦٩ وكان برنامج يميل الى نفس الاهداف التي كنت قد كرستها في برنامجي الاذاعي، فكنت اقدم اسئلة ثقافية وتوجيهية كما كنت اقدم الضيوف واستمريت مع برنامجي حتى سنة ١٩٦٩.

بعد هذه الرحلة الا يزال يستهويك عالم الاطفال؟

– كنت ولا ازال مخلصا محبا لكل الاطفال اينما وجدوا او حلوا ولكنني ابتعدت قليلا عن نشاطي السابق اذ تحولت الى العمل في دار الحضانة وقضيت فيها ثلاث سنوات ولكنني في النهاية خسرت كل شيء ولكني ربحت حب الناس وحب الثورة.

مجلة فنون تشرين الثاني 1978

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير: عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون